GEAL GADED

كتاب جيل جديد الثالث

القصص الفائزة

بجائزة الطيب صالح لكُتاب جيل جديد



جيل جديد

القصص الفائزة

PDF

- القصص الفائزة بجائزة الطيب صالح لكتاب جيل جديد
- كتاب جيل جديد (٣)
- إبريل ٢٠١٥ م

مقدمة

في دورتها السابعة حملت جائزة الطيب صالح للقصة القصيرة بشرى سارة لمجلة جيل جديد وقرائها وذلك بفوز ٤ من كتابها بالجوائز المقدمة من مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي ، حيث حصل نص الكاتب يس الملك (المؤود) على المركز الأول مناصفة ، كما حصلت نصوص كل من طلال الطيب (فانتازيا المهرج) ، وراشد يسلم (حكاية العجوز) ، وسحر عظيم (ذبول الياسمين) على الجوائز التقديرية .

و في مناسبة كهذه كان لا بد لنا من إحتفائية تليق بها ، ولم نجد أفضل من إصدار كتابنا الثالث محتوياً على نصوص كُتّاب جيل جديد التي سبق لها الفوز في هذه الدورة والدورات السابقة وهي :

شلل اليقظة / مودة نصر الدين

حكايات عادية غربة الجدّات / إسلام أحمد منير

هذيان / خالد عمر

إتسيدي الموت وقوفاً / إبراهيم جعفر

وقالت اللوحة / حفيظ الحاج

إنعتاق روح / إيمن محمد

المؤود / يس الملك

فانتازيا المهرج / طلال الطيب

حكاية العجوز / راشد يسلم

ذبول الياسمين / سحر عظيم

مع ملاحظة أن كل من طلال الطيب وأيمن محمد لهما أكثر من نص سبق له الفوز بالجائزة التقديرية .

جيل جديد

الدورة الخامسة

٢٠١٣م

- شلل اليقظة (مودة نصر الدين) :

شلل اليقظة هي حالة من الطفو ولا يصح أن نطلق على الذي يختبرها بأنه عاقل في حينها، لأن النوم هو مدى بعيد من اللاوعي.. تخيل أن عقلك نائم وعيناك مستيقظتان !

عندما جعلت بطلة القصة تسير بكل ذلك التعب والعزيمة كنت أقصد أن أحمّلها عبء الحياة بهذا المرض الخفي.. وأن تفصح عن كل أسئلتي القديمة، وأن ترتكب بعض المخاوف، نكاية في قوانين المثالية وذلك لأصعد بها نحو الحرية الكاملة.. نحو الجنون المطلق.

- حكايات عادية / غربة الجدّات (إسلام أحمد منير) :

في القصة رأيتُ جدتي وجدتك.. وجيل من ينابيع الحنانِ التي صادرها الأبناء من مواطِنها.. الكتابةُ فعلُ تعبيرٍ وتأريخ.. والتغيُّر الاقتصادي والاجتماعي الذي هبَّ مؤخراً على بلادنا هبَّ بقوةٍ بينما تصحبه ظواهر نفسية عِدة وإختلاجاتُ تستحقُ أن يُدونها الرُواة لما بها من معالِم الإنسانية..

"غربة الجدات" قصةٌ تحكي حكايةً عاديةً لحزنٍ غير عادي تراكم الغبار عليه وعميت عنه قلوبُنا بضوضاء المدينة.. الجداتُ محراب الحكايا المقدس وحمائمُ السلام على الأرض.. فحين تدُّسُ رأسك عند جدتِك وهي وطنك.. تذكر فقط أن لها أيضا وطن..

- هذيان (خالد عمر) :

ما زلت أجهل ذلك الشعور المضطرب الذي أصابني لأفكر - في آن واحد - كرجل ريفي معتل بالفقر ، وكصبي في الثانية عشر قد فقد والده .. أو كأرض بور تأمل بالمطر .. أو كبلاد حائرة تتكسر أطرافها كل يوم . ربما كنت أبحث عن خلاص لي ، خلاص للآخر البعيد جداً . أو أنها مجرد أفكار قد تلد صبي داخلي يعرف من أنا .!

وفي ساعات كتابتي - أنا والوالد وإبنه - لكل هذه القصاصات تعثرت باللغة وتهت في داخل هذه البلاد الكبيرة .. وحين أدركت أنه شعور مبهم بالضياع وبأشياء تعود إلي إنسان آخر يشبهني في مكان لا أعرفه ، يحيا بحياة صبي ويحكي بحكمة عجوز ، رأيت أبعد من تهور الصبي وعجز الوالد وأقرب للحقيقة لمعرفة معنى الحياة . فغلفتها وأسميتها هذيان .. فلربما كانت بداية حياة أخرى أكثر عدلاً .!

شلل اليقظة

مودة نصر الدين :

ها أنا أتفلت من واقعي... لست واثقة أنني أسير بشكل جيد.. لا شيء مكتمل التفاصيل أمامي.. لأركز عليه وأنتشلني من هذا الهيام الواسع.. وإذا بالأبنية تتشاهق من حولي.. الشوارع تستطيل بلاحدود.. الوجوه المارة كانت بلا أعين ومحنية الشفاه للأسفل.. نبهني الحجر المصطدم بأصبع رجلي العارية : أن عودي .. فعدت .. لأبحث عن رقم في هاتفي الجوال لأستنجد به .. وكرصيدي في الحياة .. كان الهاتف خاوياً يشتكي من ضيق ذات الرصيد .. للأمام والخلف.. كانت قامتي تتأرجح باحثة عن اتزان.. أمد يدي لأقرب حائط .. فيمد الحائط يده إليَّ.. أتكئ بظهري على ظهره.. ما أثبتك من حائط ، أحاول تجويد المشي فتسوؤني رائحة بول جديد على الحائط. . أبتعد عنه باحثة عن أمل آخر.. ذي خطواتي ترتفع.. أعود لأتفلت.. لا ضوء ينكسر على حدقتي من الأشياء لتثبت نظرية الرؤية.. ها أنا أسوخ..

أطفو

أقاوم

أعلو

أسقط

و الفراغ بين هذا و الآتي لا وصف له غير (السكينة)

ماهذا ؟؟ يد لرجل تتحسس ذراعي.. صرخت بداخلي.. ابتعد ابتعد.. وكأن الصرخة المكتومة أيقظت خيالاتي المنهكة من فرط التأدب القسري.. فتجبرني على العيش مع طفولة أخرى كأنها لي .. بذكريات مصطنعة.. تعطيني محبوباً جديداً و أوسم من (علي) أحببته بانفراط في تلك اللحظات المضافة إلى ندامة العمر.. ها هو يدخل يده ليعتصر مضخة الدم بكفه عندما عاودت تلك اليد الغريبة الضغط على ما بين أعلى أنفي و عيني.. لتؤلمني.. وأصرخ..

وهنا أستيقظ بعينين تساقطان الدمع دون انضباط.. و دون سبب محدد.. لم أدرِ أكان لألم روحي أم لألم كفي المحروقة من قرصة ذلك الرجل.. وبعد أن عدت لوعيي عرفت بأنه كان الدكتور.. الذي أعيى نفسه محاولاً إفاقتي.. فاستخدم جزءاً أكثر الطرق إيلاماً.. أنا الآن في مشفى قريب من الحائط المنقذ.. ما زالت كفي تؤلمني.. فخرجت من المشفى ساخطة.. دون فحوصات أو محاليل وريدية.. و من جاؤوا بي ههنا يستغربون أو يضحكون.. لا أدري.. أنا أعلم دائي.. غير منضبط بأعراض مسبقة.. وليس له مواعيد.. عنيد أيضاً لا تفلح معه خدع الأطباء أو محاولاتهم لاقتناصه..

أعود إلى الواقع..

و تستمر تلك الدورة.. بين النهوض و السقوط.. والأحداث بينهما مائرة مكتنزة بالأحلام معاقة الأطراف... صرت أحكم مسيري في الطريق جيداً.. ولا أحكم مسيري في الحياة.. أترك الأمور تتكالب على.. خرجت إلى الطريق بدون هدف محدد.. رأيت الناس تمشي معي و من حولي.. كل ينهض و يسقط على طريقته.. أفكر جادة في حل لمعضلتي، أبدأ التفكير فأنساق لأفكار أخرى.. حسناً سأفكر بصوت عال.. بدأت الكلام مباشرة : المحامي الله يجازيهو..

غشاني.. شال أتعابو كااااملة وقال حيرجع لينا حقي و حق أخواني.. يعني هو عايزني أخلي الموضوع ولا شنو؟ في زول في الزمن دة بيخلي قطعة واطة لزول غريب؟؟ خمسة سنة المشكلة ما إتحلت.. أنا والله كان قمت على جني برفع عليهو قضية و على القاضي ذاتو!!

هكذا حددت مشكلتي.

وفتاة الثانوي تلك ابتعدت عن طريقي خوفاً مني.. هل هو شكلي أم طريقة سيري؟ إذن هو خوفي الداخلي من الجنون قد إنفجر..لا حقيقة أمامي الآن غير (علي).. ذلك الطاغية الذي أحبه.. رجل القرون الوسطى والعصور المظلمة.. مثال رائع لإنعدام اللطافة في رجل.. سأريه الآن كيف يكون الجنون في عصر العولمة.. واصلت مسيرتي على قدمي مجبرة.. أظنني فقدت محفظتي و جوالي عند ازدحام السقوط.. فمشيت بتعب و عزيمة.. فقادني الجنون إلى منطقة عامرة.. شوارعها نظيفة لم تشرب ماء البالوعات.. جلست بإحدى المساطب أتحسس تورم قدماي.. ثم أخرجت المرآة.. و بدأت أزيح رفات الكحل عن عيناي.. فرأيت مكانه تحد واضح من التجاعيد.. أبتسم فتتعرج أكثر.. أبكي.. فتزداد ترهلا و تزيدني قبحاً.. لماذا لم أكن أكثر جمالا؟؟ أتمدد على تلك المسطبة متوسدة حقيبتي.. جسدي محني على نفسه يستفهم.. لم أنا؟ و إلى أين؟ و حتى متى؟ تركته ملقى لرحمة الله.. وعمدت إلى مدائن الأحلام.. أسكنها و تسكنني..

ما هذا؟؟ يد لإمرأة تتحسس ذراعي.. (يا بتي قومي معاي الله يهديك.. بيتي قريب).. وجدتني على حافة هاوية المسطبة.. فكونت جلستي بهدء تركتها تتحدث و تستفسر و أنا أراجع تجاعيد ما حول عينيَّ و فمي.. تباً.. لم تختفِ.. أمسكت بي لنذهب فذهبت دون كلمة.. أكلت عندها و شربت.. هذه السيدة تقيم لوحدها أو أن أبناءها غير موجودين الآن.. مممم..

لم أشكرها عند خروجي .. أخذت معي جوالها.. كنت أحتاجه لأتصل ب(علي).. أيضا استبدلت حذائي البلاستيكي بأحد صنادلها.. كما أخذت إسورة من النحاس سمعت عن فائدتها لأوجاع الجسد..

نظرت إليها.. عينها كانتا تبحثان عن شيء ما بالأعلى.. وملقية على السرير كالجثة.. هل يا ترى أكون بالغت بالضغط على عنقها عندما دنت لوضع الطعام على التريبزة؟؟ شككت في نوايا هذه المرأه الغريبة وقتئذ!!

...

"آلو..علي إنت وين؟؟"

حكايات عادية – غربة الجدات

إسلام أحمد منير :

كان يوم عطلةٍ كسول من أيام الإجازة المدرسية الطويلة.... تثاءبت شمسه بدلال وكانت الإجازة طويلة... طويلة بما يكفي لأقبل من دون تردد دعوة أمي يومها لمرافقتها في زيارة قريبةٍ لنا... تقول أمي أنها لم ترها منذ سنوات بعيدة... ولم أكن رأيتها في حياتي قط...

لم يكن لدي ما أقضي به يومي... خرجنا ولم يكن في أجندتي سوى الخروج من أجل الخروج إذ يمر الطريق للمنزل الذي يقع بحي في طرف المدينة -كما اخبرتني أمي- بالنيل.. أنا كنت أعشق النيل... مياههُ وهواءهُ... وكل ما يحيط به....

لم أكن أدري يومها أني ذاهبةٌ لأكتشف كنوزا أخرى خباءها النيل العظيم بين ساكني ضفافه.... لألاقي نيلاً آخر من الحنين... وأتلقى، بلا سابقِ إنذار، جرعةً فائقة التركيز من المحبة اللامشروطة....

كانت السيارة تنهب بنا الطرقات... توقفنا لنسأل عدة مرات بين الحين والآخر... كانت المرة الأولى التي تزور أمي المنزل بعد انتقالهم إليه في أعقاب قدومهم من القرية.... وبعد دورانٍ كنا قد اهتدينا أخيرا للمنزل...

على بوابة بيتٍ متواضع حيتنا ابنتها ورحبت بنا وهي تكاد تقفز فرحاً... تخبرنا بزهوٍ غامر كم ستفرح بنا أمها التي تشتاق للأحبة ويسكنها حزن الوحدة والإبتعاد عن موطن الصبا .... بينما أنا غارقة في دهشتي من ذلك الإستقبال اتجهنا معها لغرفة واسعة في فناء المنزل الغربي...

وهناك وجدناها... وحدها... كانت تجلس بهدوء وسط السرير الذي ثارت ملآته على تغطية أطرافه وارتفعت عن حوافه.... هالة من شئٍ لم أستبن كنهه كانت تحيط بها.... تحت فراشها كان إبريق ماءٍ حال لونه... والأرض حولها رطبة... تفوح برائحةِ المطر... والوطن... والحنين... ورائحتها...

على السرير تبعثترت أشياءها... فهاهي في الركن استقرت سجادة صلاة مذهبَّة الخيوط... وبجانها تكوم ثوب بنقوش رمادية مجعد الأطراف... علبة دهان الروماتيزم... محفظة جلدية بنية اللون... زجاجة عطرٍ قديمة بجانب الوسادة..... أشياء صغيرة تخبرك حتما أن بالمنزل جدة...

وكانت الجدة كملكة نوبيةٍ قديمة تجلس بتؤدة... تنظر إلى الشئ واللاشئ... بقميصٍ أزرق مزهر كلون السماء... على رأسها تدلى إيشاربٌ ضاعت ملامحه... ولم تفلح مقدمته في تغطية شعيراتها البيضاء الثائرة... تلك الشعيرات بلون الوقار اتكأت على أطرافها بقايا حناءٍ بلونٍ بني دافئ... لون الحناءِ أيضا لونٌ للوقار... تلك السيدة كانت مميزة التفاصيل... تجذبك إليها... تفيض صفاءً وسكوناً.... لفت مسبحةٌ بيضاء جيدها وتدلت بعرفٍ أخضر على صدرها... ولوهلة رأيتها مضيئةً كمئذنة...

توجهنا إليها... سرعان ما التفتت على أصواتنا وتناثرت بسمة على وجهها الصبوح... قبلت والدتي وضمتها... جئتها وسلمت عليها بكفها المعروق وأديمها المتجعد وفي عينيها أحسست بشئٍ قديم يربط بيننا... شئٌ اختبأ في عينيها وسرى مباشرةً ليفتح أبواباً ومداخل في قلبي...

كانت تلهج بالترحيب فإذا بها تحيل ذاك الصباح الشتوي البارد ليومٍ دافئٍ مثلها... جلستُ على طرف السرير وأنا أسرق النظرات خلسةً وأتأملها... بدأت هي وأمي تتجاذبان أطراف الحديث.. عن صحتها وعن الأبناء... وعني... عندها رأيتها تلتفت إلي وتمد يدها... قمت نحوها.. ضمتني طويلا طويلا... وقبلتني... لم أكن أعرفها قبل اليوم ولم تكن تعرفني ولكن الجدات لا يكفيك سوى لقاءٍ واحدٍ فقط لتتعرفهن.. وتصبح صديقاً لهن... وتذوب بأسرارهن وحكاياهن وسحرهن...

جلست على السرير وأنا استمع لحديث أمي معها لكن بأذنٍ شاردة... وأتأملها بعينين سابحتين... مفتوحتين على اتساعهما... كأني أريد سبر أغوار كنزٍ قديم.. كنزٍ معتق ...

ابنتها انطلقت كي تقوم بواجب الضيافة لنا... بابتسامةٍ صافيةٍ وفرحٍ خرافي الملامح فكأنا جئنا لها بنور الربيع وحياته... ولم تدري بأنا نحن من جئنا فأخذنا وارتوينا من ربيع أمها التي نثرت علينا الصفاء والحب والحنين

كانت تحكي بصوت عصفور عن الأيام الخوالي... عن أمي وخالي وجدتي وأيام الصفا بقريتنا بجوار سكة الحديد... عندما كان الناس يعيشون معا... يأكلون معا... ينامون معا.. يصحون معا... ويعرفون ما معنى أن تكون لك جدة.... كانت تحكي عن أيام العطاء ووقت الوفاء ومعنى أن تعيش بالوطن... لا شئ حولها اليوم يشبه الوطن... كانت تذكر دارها بمدخل القرية وتصمت... تحدق إلى الأرض ونرى بعينها دارها التي بنى العنكبوت مدائن عليها وكستها تلال التراب مذ أتت مع ابنتها لضوضاء المدينة... وجفاء المدينة... واسفلتها الذي تمدد في كل الإتجاهات و لا يأتي لها بالأحبة... كانت تحكي عن منزلها الذي لم يبق مثلما كان.. صار خالياً كصفحة أرضٍ حرثت لتوها.. لم يبق شيٌ به سوى قلبها... قلبها الذي تركته مقيماً أبدياً عند منزلها بمدخل القرية....

أخبرتها عن زيارتنا العام الفائت للقرية... عندما أخذتني أمي لأزور معها الأقارب هناك في الحي الصغير بمدخل القرية... ضحكتْ وفرحتْ لأن أمي لم تزل تذهب إلى هناك... بل وتأخذنا معها... وبدأت تثرثر معي عن تفقد والدتي وهي صغيرة لها دوما... وزياراتها التي لا تنقطع... عن وقتٍ ذهبي حتى الأطفال فيه كانوا يعرفون أشياء عن صلة الرحم... وكيف تزور مريضاً... وتقبل جدتك.... وتضحك لها بعد ان تدس في يدك قرشاً أو تمد لجيبك بقطعة حلوى أو حبات تمرٍ..

كنت لا زلت أتأملها... رأيتُ فيها الوطن... وكيف يكون الوطن استثنائيا ونقيا حين ينتمي له من هم مثلها... مدت لنا ابنتها أكواب العصير.... تحدَّثنا وهي تحُثُني على شُربِ العصير بين فينةٍ وأخرى.... كانت رغم اعتلال صحتها البائن لا تزال جالسة... أمي لم تكف عن الإلحاح عليها أن تتمدد قليلا طلباً للراحة لكنها بابتسامتها المشرقة كانت في قمة الإصرار على أن تظل جالسةً بيننا بينما تضمنا بعيونها وتحتضننا بنظراتها... كانت تقيم إحتفاءً على طريقتها الخاصة ليعلن عن فرحتها بلقائنا...

صفحة وجهها... عينين برئتين عميقتين يطل منهما ضوء الفجر... وأنفٍ دقيق سقط على فم تلون بالسواد ليقف شاهداً على أيامٍ كانت معايير الجمال فيها تتكئ على الشفاه السوداء ووشم الخدود... وكانت هي تملك ستةً من خطوط التاريخ هذه ثلاثةٌ في كل جانب... وبعد كل هذه الأعوام ستجدها جميلةً... أصيلةٌ ومعتقة تحكي وحدها عن حضاراتٍ وحضارات استقرت على صفحة وجهها... كانت خريطة كنز!!

علمت أنها كانت تقضي النهار وحدها في المنزل... ابنتها تنطلق وهي في صراعٍ لا ينتهي بين دوامة العمل، لتأتي بما يعين زوجها على تسيير مركب الحياة، وأعباء المنزل.. وطفليها وأمها... الحفيدان يغادران المنزل منذ الصباح لتلتهمهما دروب المدرسة... زوج ابنتها يعمل بأحد الأقاليم البعيدة... والمنزل يبقى فارغا إلا من طيفها وهي على سريرها وربما بقي يثرثر بجوارها التلفاز... لكنها لم تكن تأبه بالتلفاز ولا ثرثرة المذيع فائق التأنق... وبقيت أفكر كيف تقضي نهارها؟؟ ربما بالصلاة؟ .. بالتسبيح؟.. بالدعاء؟... بإجترار الحكايات القديمة والأيام الجميلة؟... أيامٌ حلوةٌ عاشتها قبل أن تغدر بها قدماها ويعجزان عن حملها وتركها تلتمس خطاها الحزينة بمعاونة عكازةٍ بائسة إتكأت على طرف السرير لن تحل يوما محل قدميها... أجل... عكازةٌ وطريقٌ طولها مائةٌ وستون كيلومتراً وسنين حملها العمر بلا رجعة كانت هي ما يبعدها عن أرض الوطن... وعن منزلها... وعن الشباب.. وأيامِ الصبا... وحنين الأحبة... كيف يمكنك أن تحيا والسماء التي تغطيك لا تدثرها غمامات الوطن ولا الأرض يعلوها تراب الوطن ولا شجيرات الوطن ولا هواء الوطن....

جاء حفيدها ليجلس بجوارها... أصغر من أن يعي كيف تعيش جدته وحدة المنفى وصراع الغربة وجور الزمن وغدر الحواس... ربتت عليه بكفها وابتسم لها... بعيدة هي المسافات بين الصغير وعالم الأسرار الذي تختزنه الجدة... فكلاهما يرى الحياة من زاويةِ وطنٍ مختلف... داعبته بقولها أننا جئنا لكي نأخذها معنا منهم... وجاء رده: "لاااااااا لا" وضحكتْ وضحكنا... ولكني رأيتُ في عينها الحنين ورأيت في عينها إشتياقاً لأرض الوطن وكل من يأتي لها به مخبئاً بين الأقاصيص والنوادر القديمة وكان صارخاً يغني بها الشجن والغياب والرجوع.. ويفضحها لقاء قومها..

إلتفتت لي وبدأت تحدثني عن علاقات القربى التي تربطها بأمي وجدتي.... عن الأصول والفروع وأشجار النسب... جعلت أستمع لها باهتمام وأنا التي لم أكن يوما مهتمةً بالأصول والأنساب .... ولطالما كنت مؤمنةً أن العلائق الإنسانية لا يجب أن تختزن في أشجار العوائل ولا أظن أن صلات الدم وحدها تجعلنا نعيش ارتباطا برحمنا.. لكني بقيت أستمع لها وعن الأجداد والأباء ومرةً أخرى عن قريتنا ومواسم الأفراحِ والأمطارِ والحصاد... كانت تحكي وتزيد شبابا في كل لحظة... ويزداد بريق عينها ونور وجهها..... وبداخلي كانت تكبر نبتةٌ غرستها عن حب العائلة وحب أرض المولد وعشق تراب الوطن...

مرت اللحظات سراعاً.... ولم أكن قد ارتويت من حكاياها بعد..... ولم تكن قد أخرجت ما بداخلها من الاشواق ولا ارتوت من الأحبة ..... وما نضبت ينابيع الحنين التي فجرها الغياب

نعم....عندما بدأت الشمس بإخفاءِ أشعتها في تراخٍ معلنةً الرحيل ودعناها... ومن خلفنا تركنا الشمس... ومنزل الجدة... ومصباح الحكايا... وكنز الحنين.... وقلب امرأة تنام وتصحو على وطن.... كنت حينها حانقةً على نفسي وعلى كل الأبناءِ والأحفاد الذين يمارسون التعذيب جهراً بإقتلاعِ النخيل والترحيل القسري للجدات من مواطنهن.. ومحاولة تغيير مجرى النيل... ومطالبة الجدات دونما رحمة ببناء ذاكرةٍ جديدة... ولباس وطنٍ جديد.... وترك ما لا يقل دوماً عن نصف قرنٍ من الذكريات والأمنيات والأقاصيص خلفهن.... في بيوتهن التي بعد أن كانت تعج صخبا وضحكا وأنس... لن يسكنها إلا عواءِ الريح وهضاب التراب البائسة.....

تذكرت هذا كله وأنا أجهش بالبكاء حين أتانا بعد أسبوعين فقط من زيارتنا لها نبأ رحيلها المفجع.... حينها علمت أن تلك المرأة الفراشة والتي لم اتعرفها سوى ليومٍ واحد كان يسكنها الوطن حتى النخاع وقلبها الرقيق كان أضعف بكثير من أن يستطيع إكمال مشوارِ دقاته بعيداً عن تراب الوطن.... أجل لقد أراحها الموت من تجرع علقم الغربة ومرارات الغياب ولكن ويحنا كم من الجدات لا زلن يعانين ويلات التهجير وتعذبهن قساوة المنفى وفي أعينهن يطل الوطن الذي اقتلعن منه كلما أشرقت شمسٌ أو توارت كطعنةٍ عميقةٍ في الخاصرة... أخذت صورة جدتي... لثمتها طويلا ورددت والدموع تخنقني "تبا لقاتلي الجدات.... تبا لنا"....

هذيان

<u>خالد عمر :</u>

في مدن العزلة

أختار هواءً مرئياً كي يصحبني

أبتكر له ظلاً

وأدرب قدميه على موسيقى الخطوات

نتحدث كغريبين عن الطقس المعتم

ونفكر في فصل لا يأتي

.. أو في عاصمةٍ للحلم

تلاحقنا أشباح الوقت

وفي أيديها ساعات موقوتة

نتجاهلها

ونسير على أرصفة اللحظة

.. حذرين

لكي لا نخطئ

وندوس على قدم غريب يتوسطنا

كي لا نخطئ ..

وندوس على قدم الموت !

محمد الضبع

لم يكن التقاء هذيانك أيها الكون إلا بآخر من الضفة الشمالية الشرقية للوطن ، قد زجرته أيدي أمير تلك البلاد إلى باب حديدي قديم ينمو الصدأ به كالفطريات ؛ وبيده قطع نقدية وبقايا زيت أسود طبعها الشارع الإسفلتي عليها عندما اتكأ عليه ليرتاح ، ويلوح بها للمارة_ كما يبدو .. ومن ثم يقف علي الباب ثانية نصف يومه .. يحلم بأن تأتي يد تأخذ يده ، تأخذ جهده ، لا أن تترك آثار جيبها عنده .

لم يمدد يديه قط إلا إلى أعلى ، لكن الناس لا ترى إلا أسفلها .

فتسقط بقايا قروش من قطع معدنية على تلك الأيدي فلا تغنيها ، لكنها تهدئ صوت ضميرها المرتفع ببعض صدقة لا تشبع حتى طفل بقطعة حلوى رخيصة الثمن .. فتسرب إلى عقله فيروس الكسل والإحباط وعاث في عقله ليبعثر جل محتوياته ؛ ما ترك شيئاً إلا أعاده سيرته الأولى .. جفت أرضه بالريف ومحصوله أكلته الطيور الآدمية الجارحة كضرائب وغيرها .. فآل إلى الهجرة إلى المدينة ، فقد سمع بأن بقايا السلال بالمطاعم والأحياء الراقية تبدو شهية لفقير مثله ولأبنائه ..

هذيان .. هو جزء من نظرة شمولية لبضعة آلاف شدوا الرحال عن قرية ما ، في ثقب يوم وخيط ليلة مظلمة .. خوفاً ووجلاً وسراعاً .. والقرية خلفهم تحتفل على أوتار ورقص الحصاد .. لتقاوي تجار فاسدين ، وتحمل بجنين يغدو بذورا أفسد للعام القادم لتنتفخ بطون الأرض بها ثانية .. لا نار رقيب تحرقها كما كان يفعل القدماء ، ببقايا محاصيلهم الفاسدة .. وهم المهاجرون اليوم .. ظلال ، سراب

.. لا شيء .. سوى تواريخ تتمخضها الأيام ببطء شديد ، وغداً ألسنة الواقع تتحدث عنهم تطالبهم بأن يكونوا .. كل شيء ، وكل شيء كان عنهم حين حاجةٍ من غياب .

تذكر قبل سنوات .. أنه كان يشاهد إحدى المحطات بالتلفاز عندما كان فتى يافعاً ، حين زار أقرباءه في المدينة .. كان مشهداً لروث الأفيال وفيها بذور ثمار بسيطة ؛ هي غذاء للقرود والطيور حين الجفاف والجوع يكون هواء بالغابة والسهول الأفريقية ، هواء يداعب الكل هناك .. فتحيا القرود وتحيا الطيور عليها .. ويموت الإنسان إذا كان موجود هناك ، ولا توجد أفيال .. مشهد اختزله في فلسفة حياته فيما بعد أن الحياة قد تعتمد على ما نكره ونحن أغنياء ، وعندما يحتوينا الفقر .. والجوع والحاجة ..

نصير نبحث عن تلك الأشياء البسيطة الكريهة .. يحادث طفله الأكبر ذو الإثني عشر عاما بلغة فلسفته الصعبة تلك .. ليدع لابنه حق البحث لا شيء آخر .. بهدوء يمسح بيده أعلى رأسه ويقول له :

بعض الأشياء لا تبدو كما هي عليه يا صغيري .. إذ أنها تغدو كما تريد أنت .. بصبرك وعزيمتك وإصرارك .. واليقظة وحدها عدو سراب الأحلام . هي أرض خصبة فازرعها إذا أنا مت .. لك ولإخوتك .. وللذين سيأتون من بعدك .. فسيظل هذا الشعب ما دامت الحياة .. كفقير يبصر الغنى على شاشات التلفاز والحوائط الرخامية للأحياء الراقية فقط .. ويتمنى .!

أو يحلم بأنه يحلق .. ولا جناح له ، فكل ما نبتت له ريشة كسرها بجهله وعراكه مع إخوته .. إلا إذا أدرك حقا ما يريد بفعله .. ولتعلم : أن الحلم خبز الفقراء الذين لا يشبعون أبدا .. إلا عندما تفيق وسائدهم كعصافير الحقول عند الصباح .. وكفتى - لم يبلغ الحلم بعد - يستيقظ وتعلو وجهه ابتسامة ، ولا خوف من مجهول محمول على أكتاف الغد .

يا صغيري ..

كل ما يحدث للآخرين ما هو إلا أحلام واقعية ..

قاد أصحابها معطيات حياتهم للوصول .. لا للتيه وللضياع ..

أنا أخطأت مرة قبل ميلادك ، فلتولد أنت كما تريد ..

فأنت وإخوتك الصواب الحقيقي الدائم في حياتي بعد تلك المرة .

.. ..

صوت الليل الهاديء كان فصلاً دراسياً له ليتعلم .. أن أصوات الموسيقي المنبعثة من أعلى البناية المجاورة من خلال نافذة غرفة مضيئة بأضواء خافته ، ما هي إلا جوع للبعض وغذاء للروح للبعض الآخر ، ماثلة في أشرعة الحزن .. وتيارات الفرح عند

آخرين .. حينها سأل والده بصوت تلميذ متزن وثابت .. ينقص سؤاله ما ينقص أسئلة أي أحد :

- أبي متى سأصل لتلك القرية لأزرع مثلما كنت تفعل ، وأعزف على ناي جدي القديم ؟

فالموسيقى هنا لا تصلح للزراعة أو رعي الأغنام ، إنها تصلح للرقص العاري من الإنصات فقط !

- صدقت يا ولدي عن الناي .. فالروح تحب الهدوء والطبيعة.

تود لو تسكن على ورقة شجرة مخضرة طوال العمر .. يغسلها المطر ، ويغازلها النسيم .. عندما تصل .. ستعرف كم من الزمن مضيت إلى هناك .. لكن سل نفسك: كيف سأصل؟ وبم؟

هذه هي الخيوط التي ستقودك كل ما قطعت الأيام دابر حلمك وخطاك .. ؟

دوماً ابحث عن إجابات وحلول فيما تقرؤه عني فيما بعد وعن الآخرين من أسئلة حتى وإن لم يضعوا في آخر جملهم علامات استفهام . ولا تتوقف عند الأسئلة إلى الأبد ، فالوقت يمضى منك ولن يزيدك إلا مقدارا من الشيب علي رأسك .

في ذلك البيت المهجور إلا من أعشاش الطيور والعناكب وبقايا نفايات سكان ذلك الحي في وسط المدينة ، كان السكن المؤقت لهم، لأسابيع فقط .. الكثير ما تتمناه نفسه ، وهي تحت كهف من صخور وتراب ، هو البقاء بذاك الحي .. بعد أن طردته أوجاع الرقي .

يتصفح وريقاته المبعثرة التي جمعها من أفواه غيره .. دون علمهم في جلسات القرية الكثيرة حين كانوا يرتشفون قهوتهم ويتجادلون في سماد المحاصيل وانحسار النيل عنهم .. لتتنفس الجزر بمنتصفه نسمات الجنوب

يتصفح تلك اليوميات التي دونها مع الأيام ليعود إليها مرة أخرى بتوسع للاستمتاع بها بهدوء عندما يحكيها لأبنائه .. وإحساس أنه لن يدرك فعل ذلك يناديه بصوت يرتفع بمقدار تعب ورهق جديد بجسده كل يوم .

أطفاله يبكون ، يتساقطون على أذنيه كقطرات ملح ، وهو هو.. جرح فتقته أيدي السنين العابثة ، يحاول مداواته .. فيزيده تألماً والتهاباً فأنى للهدوء أن يكون طعمه مستذاقاً له ؟!

كان يدرك أن كل ما عليه هو أن يحكي ، فسوف يحفظون ما يقول على صفحات دموعهم . فالوحدة آتية لهم عما قريب وسوف تلتهمهم كطوفان عظيم ، وكما يحس باقترابها، عليه تعليمهم كيف يواجهون العزلة ومستقبل التفرع من بحيرة تتغذى من مجاري عدة للمجتمع ، وإدراك استقلاليتهم وحاجتهم لكليتهم سويا .

رهق يصب على رأسه بغزارة ، ينتشر إلى كل جزء يجري به دم ، تنضج العروق .. لا احتمال لتتجلط إلا بقطعة فرح . قطعة لم يمتصها قرص الحزن الذي أشار له به حكيم مخمور قد تعرف عليه في السوق عندما كان يتسول شيئا ليعمله أو يأكله وأغمي عليه هناك ، ليفيق ويجده أعلى رأسه يتمتم .

وجه منفر وأسنان مسودة ورائحة نتنة وثياب يملأ مسامات خيوطها لون بني متسخ .. لا ينفذ شيء لداخله بل لخارجه تحمله الريح . حينها كانت المشاهد حوله وحدها تكفي لأن تخرج الشمس من مغربها في لحظة سقوطه ، لأن اعتياد تناقض الإنسان لفعل أشيائه من حوله جذب الشيطان لوده .

قد كان الشروق ، كان الغروب ، وكان سطح الماء العذب واللجاج موضع يلتقيان ..

كانت هذه الأشياء كل جنوده وكل وده وما يجذبه من قبل . حينها كثر الغرق ولم يدرك إلا القليل النجاة ..

هو لم يكن يدري أيهم هو ، وبين لحظة غفوة ونشوة منظر .. توجد خطيئة ما ، لا يدري بها أحد إلا الإله ومرتكبها والذي ارتكبت فيه .

لا أحد يراقب ، فالكل .. يمارس هواية العمى .

كان يسير بفتور تام .. منساق تماما ، كأن الشيطان يقوده ليقفز من أعلى الجسر .. لا لينتحر فهو يعشق الحياة ، لكن ليستغفر عن كل الخطايا التي أصابته .

صنبور الحياة بمنزله القديم في القرية كان يتنفس آخر أنفاس الاحتضار ، نقطة ماء تسقط على الإناء ، تصدر لحنا مألوفا للعطشى ، ثم صوت صدى أنابيب المياه يعود إليه بحثيث خطى العابرين وصوت معاول تحفر القبور الجديدة ، لما تبقى من أهل تلك القرية من الأطفال والشباب و...

ثم .. آ آ خ خ خ خ خ خ خ خ ..

هو الموت يتنفس بنهم كل الحياة في آخر الإناء ، ليملأه فراغا .

كان تجاذب وتوافق غريب بينه وبين سقوط منزله الذي تضرب الرياح جدرانه كل ليلة ، لتسقط كل لبنة منه ، واحدة تلو آخرى . كان يصدر عندما تعبره صفيرا شبحيا ، وهو كان الشبح السرابي هناك وهنا ، ولا أحد يعبأ بإزالته من على خارطة الحياة في عملية تخطيط لإنسان عشوائي .

ثم يهبط من الأعلى .. كصقر جديان يتحدى اتساع وطن ليعبره؛ ليجد شجرة تبلدي يبل ريقه من جوفها ، يعانقه نسيم النيل ، ينفخ جلبابه الأبيض ، وينتشي بارتفاع مقدار الأدرينالين في جسده نحو قلبه .

يخترق جدار الماء ، فيتبعثر سطحه ناثرا فوضى قطراته كما ذرات الغبار ، كاختفائه داخل عاصفة ترابية ، ثم يظهر على السطح بعد احتجابه .

يسبح بسلاسة قارب نوبي بمجدافيه إلى جزيرة بمنتصف النيل ، لا أحد غيره . وحدها أشجار السنط في هذه الجزيرة ، فيستلقي على العشب يستلحف به ويغطي بالنسيم جسده المبتل بالكآبة .. فتصيبه رجفات الحرية وارتعاشها المسلوب في ليلة فرح بالك .. في تلك الليلة .

لون حناء زوجته ورائحتها يداعبان أنفه لأول مرة ، ووجهه وعيناه تلامسان صدرا ممتلئا بفاكهة الانتظار ، لشوق نما بأرض حب حرثاها لسنوات سويا ، آهات إثارة تصدر من سرير ناعم تحيط أيديها بكل شئ ، لا أحد يتحدث ، لا صوت إلا هما سويا يشتعلان ، وزفير نارهما المتقدة ، رويدا رويدا تخمد لتنام ، ويغدو رمادا يبعثره نسيم الليلة الأولى .

اللحظات الأخيرة قد تعيدنا بعبثية إلى أول الفرح لتمزجه بحزن الحالة الآن كما يحدث معه ، الفقدان بكل أجناسه يطفح بالإثارة والشوق كل ما ناح نائحه .

تغيب الشمس بعد ساعة من الوحدة ، فتودعها يد الشفق بمسح دمعة من على خد سحابة السماء اليتيمة التي تداعب عينيه .

لا بدر بداية الشهر في هذه الليالي فما زال القمر كخيط خط محدب بمنتصف السماء وتحته نجمة مزهوة بموضعها في استلهام لحرف باء ُتعلمه الطبيعة للكون .

هو قد باء لكل شئ بمقدار عمر مضى - إلا الحياة كتلك النجمة - ليواصل تعليم أبنائه السباحة والقلم ومضادات الألم والغرق وأشياء أخرى متواضعة وبسيطة وساذجة .

هناك في ذاك الذي يسمي مجازا مأوى ، يبكيه أطفاله والجوع سويا . بقايا النار كانت قطرات رماد أسفل الإناء ُتنضج الفراغ ، وأمهم تغني واقفة قربه .!

لكن العيون الجائعة لا تنام ولا تسمع الغناء .. ولا تعي دموع الطعام حتى ، إلا ذاك الابن الأكبر !

كان يحمل صمت والده ويدخره ، يخبئ الكثير من ذاته تحت كف القدر البريء . ينظر لأمه بابتسامة تبعث تلك الأم من جديد ، ليخرج ويترك لها وعداٍ بأنه سيعود قريباٍ ليشبع إخوته ، وفاجعة أن والده لن يعود الآن أو غداٍ أو إلى الأبد .

ذاك الوالد لم يذهب دون أي أثر بترك خيوطٍ لم تحك بعد ، إنما نسج الحلم بشبكية عيني هذا الصبي .. وأوقد بعقله البحث حوله بتأمل ، كنار في بتلة قطن ، كل ما تعمق ازداد معرفة بتوهجها .

زرع فيه أسئلة مثل ..

- لِم ما حولي دافئ ، عندما أشتعل في ذاتي ؟!

- ولِم نرصف الطريق .. ونتركه خلفنا رغم أننا ذاهبون ؟!

وآلاف القصاصات الورقية ، كتبت في سنوات من الليالي على ضوء شموع هادئة . مكتوباً بمنتصف ورقة بيضاء ، تغلفها من الخارج ، يشقها امتداد شارع خيالي الانتهاء ، موحش مزدحم بالألوان :

الطريق إلى استثنائية الأشياء !

وتوقيع باسمه وكلمة إهداء صغيرة متبوعة بـ (لك).

.. ..

هناك بتلك الجزيرة

خسوف تعلنه عيني ذاك الأب ، والفصل أواخر الصيف . كان في انتظار فيضان الخريف ليحمل رفاته الحي إلى عمق النهر .. عله يستحم من ذنوب الأيام أو ينسى كل شئ وينسى للأبد .

أصابه هذيان ما ، وبدأ يتمتم بأحاديث متشابكة كأفرع نبته نيلية تتسلق حول ساق روحه ، يتمتم بآخر ما يحفظ من مذكراته ، ويدونها على صفحات الريح :

(تستيقظ غفوة الأنا لواقع الجميع وحب الآخرين ، في غفلة من واقعي الذاتي . حين الطل يهطل خريفاً لعمري ، فأنبذ فقر الرجال ، جهل الصبايا ، جوع الأطفال وأنفق كل سنين أنفاسي دنانير وجنيهات ذهبية على الأرض . كما أني لا أدري سر تذكر آلاف الذين أحبهم في لحظة أوشك فيها على الغياب عنهم)

يصمت ويستمع لحركة أفرع الأشجار وخرير جريان الماء بين غفوة وصحوٍ ، وكأنه فنان يغني يسكن ليوافق لحن الحياة .. ثم يتابع في ارتفاع لأدائه ..

(ليت الكثيرين ممن قرأوا وكتبوا باختصار تعلموا ، وضعوا قلم الثقافة والعلم بجيب قميص ما من تلك الزاهية المتعددة التي يمتلكونها حقاً . فالأفعال لا شئ يوحي بمرجعيتها غير العادة والتقليد المبتذل ؛ لا ما هو صحيح في الأصل .

وإبداء بعض نظرات الرأفة - لا أكثر - لقدمين حافيتين تعبران الإسفلت إياباً وذهاباً تتسول ابتسامة وآخرى وهي جالسة عليه ، وقميص طويل متهرئ وبنطال لقدم واحدة يسترها وشعر خشن أشعث ووجه حزين).

وهنا يأتي السؤال الأخير.. في ذات اللحظة التي يقرؤه ابنه بأخر ورقة من تلك القصاصات بتعجب مجهول .!

(حقاً من أنا ؟!)

الدورة السادسة

٢٠١٤ م

- إتسيدي الموت وقوفاً (إبراهيم جعفر) :

من الغريب أن يثرثر الإنسان بخصوص كتاباته ، سيبدو حينها مَرَضياً وغير قابلٍ للاحتمال ... ألا تتفق معي أن النص هو الذي يجيب أن يخبر القارئ عن أسراره؟! لذلك ، سأنأ بنفسي عن الحديث بشأن أتسيدي وظروف كتابتها الصعبة وما إلى ذلك ، وسأخذ الفرصة هنا لأشكر كل من ساهم في إخراج النص لما هو عليه الآن ، صحيح أن القصة قد تحمل اسمي ككاتب لها ، لكن خلف السطور يوجد عشرات الأصحاب والرفقاء .. حقاً ، شكراً لهم.!

- وقالت اللوحة (حفيظ الحاج) :

ولأننا أمسينا في زمانٍ نحيأ ونموتُ فيه بمفردةٍ أو فعل ؛ أصبح من السهولةِ بمكان أن يحدّثَ أحدنا أخاه الذي يقبع في النصف الآخر من الأرض بمجرد ضغطةِ زر تحت ذريعة تُدعى "التكنلوجيا" ؛ وأضحى الموتُ بقُبالتنا بمجرد أن نُشاك بوخزٍ في أجسادنا بذريعة كابوس يُدعى " السرطان " ؛ لأجل كل ذلك كانت سعاد من قلبِ قرويتها تهدينا لحنَ الخلاصِ بأن قاتلوا الموتَ بالحياة .

- إنعتاق روح (إيمن محمد) :

لا ألم يعدل فقدان الذات .. وفقدان الهوية .. والتشظي بين وطنين كانا قبل زمن شيئا واحداً .. هذا العمل لم يكن الا محاولة لتوضيح معنى الوطن .. ايا كان .. أينما وجد .

أَتْسِيدِي .. المَوْتُ وُقُوفاً !

إبراهيم جعفر :

(1)ة

القلوبُ الكبيرةُ:

لم تَكُ المسافةُ التي قطعتها "أتْسِيدِي" من مكانِ عملِها كخادمة منزلٍ ، إلى نهاية الشارعِ ، بالطويلة على الإطلاقِ ، لكنها ما إنْ انعطفتْ يساراً ، وسارتْ مِقدارَ خطوتين إضافيتين ، وتَنَهَّدت بعضَ زفراتٍ بائساتٍ كماعزٍ يوشك على النفوقِ ، حتى انتهت لحقيقة أنَّ التعبَ قد نال تماماً من حضرتِها.. وأنه فِعلاً ، بات من المُعْضِلِ على أي خادمة حبشية في سنِ الرابعة والعشرين ، وبكلِ هذا الغم على الكاهلِ ، مواصلة الضرب في الأرض.. فترنّحتْ في عينها السماءُ والأشياءُ المحيطةُ ، وغابت من فورِها عن الوعي...!

في ذلك الصباح من شهر "طِرْ – يناير"٢ ، حيث الشتاء مازال يُؤرِقُ ببرده سكينة العُشَّاق الحَيَارَى ، وحيث الشمس الناعسة بدت من غير دفءٍ أو شعاعٍ .. أقرب إلى لآلئِ العجائز ، وإلى الحد الذي جعل أخت "أتسيدي" الصُغرى عندما تملكتها نوبةَ سُعَالِها الصباحي ، وهي تنظر صوب قرص الشمسِ المُعَلَّق ، تَذكُّرَ حكاوي الجدة القديمة ، فبصقتْ دماً أحمرَ وردي، وبكتْ أنيناً فاتراً سمعته كل الدنيا !

في ذاك الصباح، عندما استيقظتْ أتسيدي مبكرةً كحالِ كل يومٍ ، وعمدتْ بخشوعٍ إلى رسم عناية صليب يسوع بالماء على جبين أُختها "ونْشِيت" ، ليمنحها من قوة الحياة ما

يكفي لتَنفُّس نهارِ يومٍ إضافي ، و صلَّتْ من أجلِها بالشرفِ المقدسِ للأم العذراء ، لتتعافى من معاناة داء السّلِّ ، وبجهد سفينةٍ غارقةٍ تحمل كل هموم العالمِ .. تضرَّعَت للمُخلِّص بأغنية أنشدتها بلغة "الأمهرنجا" .. بترنيمٍ دفّاقٍ وشدوٍ رقيقٍ .. أعجب الطيور والأولاد العُرَاة :

(أيُّها الرَّبُّ،

حينما أخشعُ إليكَ في سكينة..

وأتفكر فيكَ ، وفي قانون عدلكَ ..

تتجلّى لي الرحمةُ ،

فكيف لي أن أشكر ، كيف؟!)

ثم لسبب مبهمٍ ، انتفضتْ فزعةً ، شَرَعَتْ ترقُصُ بلا انقطاعٍ ، دارت دورتين ، ضحكت .. واستحضرت كل حياتها ، منذ أن كانوا أربعةَ رجالٍ وسبعَ فتياتٍ محشورين داخل عربة بوكس تحت المطر ، يتم تهريبهم من إقليم "غَامْبيلا"٣ غَرْبيّ الهضبة إلى حدودِ السودان ، مقابل ألف "بِير"٤ إثيوبي وأشياء أخرى لا تذكر، كالشرف .

**

تَمْتَمَتْ "ونشيت" لأختها بعد أن هَدَأَت نوباتُ السُّعَال : (يا أتسيدي المسكينة، لا تخافي ، فأنا ميتة ميتة ، إن قدري لا محالة هو التَعَفُّن في بيت للإيجار .. لا تقلقي على أختك ، فهكذا طَمْأنَتني الجدة)

– فزجرتها أتسيدي مُغْتَضَبة: (بيسوع ما هذا الحديث ، ليتكِ تموتين وتريحينني من غباءكِ وغباء العجائز، فهل مزقنا كلاوينا وسكبنا الدم لأجل أن تموتي في بيت إيجار؟! رُحْمَاك يا إلهنا الأعلى، رُحْماك... فالبنت نسيت جنون "نِيقُوسِي" بالمرة)

– ضَحِكَتْ ونشيت من كل قلبها الواهن ، كضوء نجمة خافتة ، وثرثرَتْ إلى السماء بخجلِ عشيقة: (حبيبي نيقوسي ، بعينيكَ الصغيرتين وصوتِكَ ، لا بشر عداكَ يسكنني .. نيقوسي الطاهر، لأجلكَ سأتنفس وأجمعُ المالَ ، وأرحل إليكَ في "أديس" ، لأقدم القهوة .. لكَ أنت فقط ، ولن أضطر لافتعال التبسم وتحمل غمزات أي رجل آخر سواكَ .. وسنغني الحبَ الذي تود)

– (هاه هاه هاه ، كم هو محظوظ ليسمع نهيقكِ وأنتِ تترنمين ، حتى اللحظة أنا أجهل إن كان نيقوسي مُغرماً بصوتكِ كما يدعي ، أم أسرته القهوة المسحورة ؟!)قالتْ أتسيدي ذلك ، وهزّت رأسها متوجعة مترجية، كمن يُواري في قلبه سراً كبيراً: (هيّا تعافي يا ونشيت، ليس من أجلي.. بل من أجل هذا المدعو نيقوسي.. المهم عندي أن تتعافي وتبدأي في الرقص والغناء) .

******

(5)

نيقوسي هبةُ الأحلام

وَقْتَمَا شاهدت الفتاتان نيقوسي لأولِ مرة ، يرتدي البِزَّةَ العسكرية ، يحمل في إحدى يديه بندقية متوسطة ، وفي الأخرى قِنِّينَة خمر ، ويسأل أين يقع بيت الجدة الفاضلة ، جدتهما ، أصابتهما البَلادَةُ والوُجُومُ .. ولم تستطيعا حتى أن تخبراه بأنّ عليه سلكَ الطريق المحازي لضفة نهر "البَارُو"٦ ثم الانحناء عند أول شجرة مَانْجُو ضخمة إلى اليسار.. بل أشارتا على استحياء: اتبعنا !

حدث ذلك في خريف " نِهَاس – أغسطس"٧ قبل سنوات بعيدة، حيث كان قد عُيِّن نيقوسي جبرياً لقضاء خدمته الوطنية في "محمية غامبيلا للحيوان"٨ ، ولأن الجدةَ الكبيرة هي أمه لأبيه ، فقد حضر طالباً مباركة البطن التي أنجبته... ولحظة رأت الجدةُ الفتاتين تهرولان صوبها دون أن تحمل أيّ منهما على رأسها إناء الماء ، وقبيل اشتعال غضبها وإطلاق السباب واللَّعَان .. ظهر شابٌ ما خلف البنتين كأنه حلمٌ قديم ، انحنى عند مدخل الباب ، ألقى التحيةَ بصوتِه الجهور ثم قال : (حفيدكِ يا أماه!)

في ما بعد، حين هدأت الجدةُ من نوبة البكاء واختلاط المشاعر، حكت للفتى والدموعُ تملأ خَدّيها: (سبحان الرب ، كم تشبه أباك الراحل ، لوهلة ظننت أن الزمن عاد بي عقوداً للوراء ، حين كان يجيء والدك فيُسلِّم عليَّ ، إنه مثلك يحمل لون القمح النَاضِج ، وتشوبه سُمْرةَ الجبال وقت المطر ، له ذات طولكَ وبنيتكَ الرفيعة ، ونفس الوقار البادي من العيون والشفتين ، وحين قلت لي يا أماه ، حين رَدَّدْتها ، تذكرتُ ولدي الميت)وأطلقتِ الجدةُ تنهيدات وعويل، وبكتْ تحتضن حفيدها ...

ومن يومها اعتاد نيقوسي أن يحضر إلى القرية كلما أُتيحت له الفرصة لذلك ، فقد أراد معرفةَ كل شيءٍ عن والدِه ، فمذ أنْ هربت به أمه وقت اشتعال الحربِ وهو يبحث عن هوية .. والآن هاهو يأتي -بعد أن وَلِفَ أيضاً سحر أتسيدي وأختها ونشيت – بلا انقطاع ، بل حتى حين انتهت سنوات خدمته العسكرية في محمية غامبيلا البرية ، أضحى يتردد في كل العطلِ والأعياد ، وبحججٍ واهية في معظم آحاد فصل الصيف . كان حقاً قد أدمن شربَ القهوة التي تعدها البنات ، ومسامرة حكاوي الجدة وأحاجيها الصادقة ، كانت الفتياتُ يجتمعن له مُفترشات النجيلَ الأخضرَ المُعَدَ لشربِ البُنّ ، وهن يستمعن بإنصات إلى خطاباتِه الرسمية عن مدينة " أديس أبابا "، وعن لياليها الصاخبة بالرقص والغناء... كن يضحكن ويتغامزن بغنجٍ:

(أووه نيقوسي هل تقسم بأن فتيات أديس، هن الأجمل في العالم ؟!)

(أووه بربك ، وهل هن رخيصات ومُمْتلَئات كالدجاج ؟!)

(أووه نيقوسي ، أَلاَ يجدن الرقص أيضاً، أوه أوه ذلك شنيع؟!)

كان نيقوسي يروي قصصه المعادة تلك بلا مللٍ ، حتى أن أغلب أطفال القرية صاروا يقلدون حركات يديه ونبرات صوته الفخيم ... وفي اللحظة التي همست فيها الجدة داخل أُذْن نيقوسي بأن لابد له وأن يخطب أنثى .. فكر أولاً في سمو أتسيدي ورِفْعَتِها ، ثم عَدَلَ رأيه لأن الجدة الحكيمة أعلمته بذكاء ماكر ودون جرح للمشاعر ، بأنها محجوزة لأحد تجار غامبيلا أصحاب المزارع ، فقبِلَ خطبة ونشيت الصغرى على مضض ، ومع الزمن ، وبسحر الجدة الخفي ، الموضوع داخل فناجين القهوة ، أحسَّ أن ونشيت هي أحلى نساء الهضبة ، وأحلى من بنات أديس ، وأن القهوةَ بالبهارِ والتوابلِ من يديها ، الأطيبُ في كل الحبشة !

في حصادِ "هِيدَار- نوفمبر"٩ ، تزوجت أتسيدي من السيد " إيبْرا جِيمْا " الطاعن في السن ، صاحب مزارعِ القصب ودكاكينِ البُنّ ، في حفلِ زواج مُترف ، وبدل بِضْع دجاجات وماعز وكلبين أجْرَبين ، بات لهم قطيع أبقار هو الأسمن في كل القرى ، وبدل طحن الحبوب يدوياً بالمَدَقِ الكبير، أضحوا يرقصون مع آلة الطحن بالبترول ، وأضحوا يصنعون طرقات "الأنْجيرَا "١٠ بمرق "الزِغْنِي"١١ في الأيام التي هي أيضاً ليستْ مناسبات .. لكن الجدةَ الكبيرة ، في يوم احتضارها ، بين كل إغْماءة وإفاقة ، كالذي فُضِحَ له القدر، رَطَنَتْ باللكنةِ الأمهرية القديمة ، وبحدتها الصدئة : (مسكينة ابنتنا أتسيدي ، ستشقى ، أولولولولوه ، بائسة ابنتنا ونشيت، ستتعفن وتمرض ، أولولولولوه ، مسكينة أتسيدي ، وبائسة ونشيت)

****

(12)

سَنَةُ الحداد والرحيل

للحقِ كان عاماً قاسياً ذاك الذي ماتت فيه الجدة ، حتى أن السحابَ بدا رمادياً باهتاً وبلا مطرٍ... فبعد شهرين فقط من إنجاب أتسيدي لابنتها الأُولى ، حتى وجدت زوجها إيبرا جيما مذبوحاً ومعلقاً في السقيفة ، ولم يمضِ إسبوع آخر حتى ماتت ابنتها بالملاريا ، وبعدها بعدة أيام هرب نيقوسي خطيب أختها لاتهامه بالتَّوَاطُؤِ مع صيادين غير قانونين ، وحينما صادروا منها كل شيء في معارك الأهل والعشائر ، وخسرت الورثةَ ، وتم إقصائُها من تجمعات نساء إيبرا الميت ووصموها بجالبةِ الشُّؤم... شعرت أتسيدي بنفسها وحيدة

أمام العذاب ، فركضت عارية إلى نهر البارو .. وألقت جسدها لتغرق كقربان ، ولكن قبل أن تموت ، وهي تتلوا صلوات يسوع : (تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ والثَّقِيلِي الأَحْمالِ ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ)١٣أنقذ حياتها صِبْيَة كانوا في الجوار، وأعادوها رغماً عنها إلى الحياة .

ظلت أتسيدي وأختها تائهتين في ليالي الجوع ، تقتاتان على الفُتَاتِ الذي يجود به أصدقاء الجدة القدامى ، وعلى الفضلات المُلقاة للبهائم .. حتى أن الذي كان يعرف وجهَ أتسيدي المكور ، وجسدها الممتلئ ، وشعرها الأسود الممتد إلى وسطها ، بات عليه الآن التَمْحيص والتروي ثلاث دقائق كاملة ليصرخ : (يا الله القدوس ، أيُّ عين شيطان تلك التي أصابتك ، وحولتك إلى عجفاء !)

**

مع المطرِ المستمر، وغِناء البوم النشاذ ، وصَرْصَرة الجنادب داخل بيوت القش ، تحت السقوف المحدبة وعلى دفءِ الدخان ، ونور الحب ، وصوم الأربعاء المبارك ، ظهر نيقوسي فجأة كالملائكة ، حاملاً معه ألف "بير" من النقودِ ، وإذناً للخلاص من قيودِ جامبيلا ، ومع العناق الطويل بين نيقوسي و ونشيت ، والحب المستديم ، قال : (ستذهبان في صباح الغد إلى الحدود ، لقد هيأتُ لكما رحلة مع" آدم حلفاوي " مقابل الألف بيرو)

– فردت أتسيدي كأنها تعلم: (وأنت يا نيقوس ، ماذا عنكَ ؟)

– سكت نيقوسي ، قَبَّلَ خدَّ ونشيت وشفتيها ، وقرأ الأملَ المكتوب بين السحاب ، قال : (أنا لابد لي أن أرحل عن الأنظار، فعيون السلطات التي في كل مكانٍ تَعُدُّ العُدّةَ لإراقة دمي

، هه .. يلفقون لضابطٍ عسكري حر تهمة قتل أفيال وفهود ، بينما آلاف بني آدم يُصفون من أجل أمن الدولة. مسكينة هي الحبشة يا أتسيدي .. مسكينة هي بلاد الرب!)

وقُبيل صياح الديكة ، وبعد أن ودعت الفتاتان قبر الجدة بالدموع ، وناحتا على كل الأشياءِ المهمة التي ستصبح مجرد ذكريات ، وحزمتا حقائبَ الرحيل .. جاءَ آدم حلْفاوي بعربته البوكس ، المليئة بالوجوه المتشابهة في الأسى ، الطاعنة في الخوف ، والمتوجسة من الحياة ، والتي كأنْ ليس لها في القدر من نصيب !

– قال آدم حلفاوي بلهجة أمهرية ركيكة: (لكن نيقوس لم يخبرني أبداً بأنكما فتاتان... بكرامات سيدي "الحفيان" ، عليكن إحضار ألف بيرة إثيوبية أخرى)

– قالت أتسيدي : (أيها المُستغِلُ لضعفِ الحالمات ، من أين لنا بألفِ بيرة أخرى ؟! .. تباً لكَ إذا قصدت الشرف !)

– فقال ببرود : (لا أحب الناحلات .. لكن اتفقنا)

كانت حركةُ البوكس بطيئة تحت المطر، بين الانحدارات الوَعِرة إلى الأراضي المنخفضة ، كأنّه الهبوطُ الأزلي من الجنة ، والضيق الذي أصاب قلوب الجميع ، حتى آدم حلفاوي، أكد ذلك.. كان وداعاً للأطفال العُرَاة ، للقرودِ ولأسراب الطيور المزركشة ، لمعزوفات "البَقِينَا"١٤ ، ولدفوف "الكَابَرُو"١٥ ، وللرقصِ... وللجَنَّة !

****

(16)

جَهَنّمُ الأُولَى

كما كان متفقاً، توقفت العربةُ عند مشارف مدينة القضارف على بعد كيلومتراتٍ فقط من الحدودِ... وبعد إضاءة الأنوار الأمامية للبوكس مرات معلومة ، وإطلاق صافرات البوقِ ، ظهرَ العميلُ "أبو شَقُوش" بادية على وجهه ضحكات صارمة ، تحدث قليلاً بلغة غريبة ، فهمت البنتان على الفور أنها العربيةُ. وحين قام شقوش بإعطاء حلفاوي رزمة من النقود ، وأخذ معه كل الإثيوبيين، علموا في قرارة أنفسهم بأنهم أسرى القدر .

القضارفُ مدينة ساحرة أيام الخريف يا أتسيدي ، تأخذ اللبَّ منكِ لخضرتها وجمال طبيعتها.. وستُذكِرُكِ جبالُها السوداءُ المطلةُ، عن غير قصدٍ، ارتفاعاتَ الهضبة الشاهقة . والخيرانُ الصغيرةُ العكرة .. والطيورُ المهاجرةُ فوق سحابها ، ستبعث فيكِ أصواتَ الحنين ، وبيوتُ القش والقطاطي التي في كل مكانٍ، ستجعلُكِ تبكين .

كان معسكراً بسيطاً ذاك الذي بناه أبو شقوش ، به بعض مئاتٍ من الأحباش والإرتريين ، مكوناً مجتمعاً من المهاجرين غير الشرعيين ، يقوم فيه بتشغيل وإيجار الشباب والفتيات المفعمات ، باليوميةِ لملاكِ المزارع لحرث الأرض أو لحصادِها .. والبنات الأصغر سناً يتم توظيفهم بضمان من أبو شقوش كخادمات في بيوتِ المدينة بأجورٍ زهيدة ، والأخريات اللاتي لا يجد لهن عمل كان يُشغلهن في سوق القضارف لبيع الشاي وإعداد "الشيشة" ، على أن يتم اقتسام أجر كل ما جناه هؤلاء مناصفة مع أبو شقوش .. لكن الذي أثار سخط أتسيدي ، أن على الجميلات تحمل نزوات الرجال أينما حللنْ!

في الليل كانت الحبشةُ حاضرة بكل شيءٍ في معسكرِ أبوشقوش . الراديو يحملُ الأغاني للرقص ، الحبُ يبدأ ولا ينتهي ، الحكاوي القديمة تُقص، والرب يُدْعَى ويُعبَدُ .. والأخبارُ عن نيقوسي تصل تباعاً وسراً ، لكن الخرطوم كانت كخيالٍ بعيدٍ وأمنية أفضل .. يحلم ببلوغِها الجميع ، فكان كل الكلام يدور عن أُناسٍ صاروا أغنياء من أول شهر هناك ، وكيف استطاعت إحداهن العمل لدى أسرة غنية سمحتْ لها فيما بعد بالهجرةِ إلى الخليج . تحدثوا عن أن ثمنَ القهوة يعادلُ أضعاف ما هو عليه هنا ، وأن أجر عاملة قد يتخطى حتى أجر طبيب ، فجمعتْ أتسيدي وأختها كل الذي لديهما من مالٍ وعزمتا الهربَ والرحيلَ .

وفي تخوم الجنة الكاذبة، في دار مبني من الطين، يحتوى على غرفة ضيقة بلا أَسِرّة للنوم أو المَقِيلِ ، تفترشها أربع عشرة إثيوبية ، وحمام واحد سيء ، سكنت أتسيدي وأختها .

**

جَهَنّمُ الأُخرَى

أولُ يوم لأتسيدي في الخرطوم ، فضّلت فيه لبس "الزوريا"١٧ البيضاء المنسوجة من النول ، والمطرزة بألوانِ قوسِ قزحٍ على طولِ العنق والأكمام .. صفَّفَتْ شَعْرَهَا ضفائر دقيقة ومسحت غبرةَ وجهها بالماء .. وحدَّثتْ نفسها مباشرة في المرآة : (أتسيدي، رغم كل شيء، أنت جميلة) .

لم يكن صعباً على البنتين إيجادُ عمل بلا أوراق ثبوتية ، فونشيت وجدت نفسها تبيع القهوةَ داخل الأسواق الشعبية ، و أتسيدي رغم حاجز اللّغَة ، صارت تخدم في المنازل الفارهةِ وغير الفارهة. هما لم تَغْنَيَا البَتَّةَ ، لكنهما صَبَرتا على أيام الضيق ، التي تُطرد فيها أتسيدي من العملِ باتهامات السرقة، وتُسجن ونشيت بسبب المشاجرات على ثمن كوب شاي.. ويُفرج عن كلتيهما مقابل تنازلات لرجال الدرك . كانتا تواسيان إحداهما الأخرى ، بمودة ورحمة ، وتزيحان عن بعضهما ملمَّات الهَمّ... وفي الأيام المُغايرة ، التي لم تكْنِزا فيها الثروة المزعومة أيضاً – لكنهما كانتا فرحتين على أيِّ حال- حيث تأتي الأخبار عن نيوقسي ، وأنه مُختبئ داخل "أديس أبابا" في تمام الصحة ، يقود جبهات النضال ، ويُمنِيهما بلقاءٍ قريبٍ .. كانتا تطبخان شطةَ "الدَلِيخ"١٨ لتقدمانها كهديةِ شكرٍ لكل المشردين ، وتتغنيان بأغاني "تدي آفرو"١٩ الثورية مع الرقص والتصفيقِ:

(الجنديُ بافالو -الثور- الأسود،

المسّرُوق من أفريقيا إلى ربوعِ العالم،

يُقاتل منذ المجيء .. من أجلِ روحه وروحنا،

فينهزم العالم، وننتصر !)٢٠

****

ج)21)

الحياةُ هي نَبْضُ القلُوب الحزينة

لعلّ أطولَ فترة قضتها أتسيدي تخدم في بيت، دون أن تُطرد، أو تَتْرُكَ العملَ من تلقاء نفسها جرّاء سوء المعاملة والتحرش ، هي السنتان الأخيرتان مع السيدة "قسمة" ، ورغم أن الغسلَ والكنسَ ، ومسحَ الأرضية مرتين في اليوم ، ومع إعداد الأكل ، وإحضار كل مستلزمات المنزل ، كان شاقاً ومُضْنياً مُقابل الأجر المتوسط ، إلا أنها كانت سعيدة بالعمل لدى السيدة "قسمة" والسيد "عبدالرؤوف ". فقد كانا يسمحان لها بأن تتأخرَ في الآحادِ ما تشاء ، وفي أيامِ الصوم المقدس ، وأعياد يسوع ، كانا يهبانها العُطلَ .. وطفلتهما الوحيدة ، "أمل" ، التي هي بالتمام في عُمرِ ابنتها المتوفاة ، وبنفس الملامح والنحول ، والتي تبكي بشدة ، في كل آخر يوم لوداع الخادمة أتسيدي .. وتضحك مع الصباح لدى القُدُوم ، كانا لا يمنعانها مداعبتها طوال فترة الظهيرة.

... أبدا لم يتغيرْ جمالُ أتسيدي حينما باتت تلتفُ بالثوب السوداني المشجر، وتتحدث العاميةَ كأهل البلد ، ولم يتبدلْ شجنُ صوتها الأخاذ بترنيمها للأغاني العربية ، لكن كل الذين دَقَّقوا في التفاصيل ، وبحثوا عن سرِ هذا الجمال ، وجدوا الحزنَ الأبدي كامناً في الحروف والأنغام.

**

الموتُ هو صمتُ القلوب حاملة الأسرار

ماتَ نيقوسي في ثورة الضباط الأحرار ، في اليومِ السادس من شهرِ "بَاقُوم"٢٢ الثالث عشر، وقبل أن تصل الأخبارُ عن موتِ المناضل ، أصابَتْ ونشيت نوباتُ سعالٍ وحُمَّى ، فقد كانت فِعلاً تسعلُ بألمٍ أشبه إلى إخراج الروح ِمن الجسد ، لكنها كانت فقط تبصقُ دماً وردياً كريهاً ، ثم ما أنْ تم تشخيصها بداء السل ، حتى وصلت الأخبار إلى أتسيدي عن أن نيقوس وهو يموت ظل يردد : (أحبكَ الله.. أحبكِ إثيوبيا.. أحبكِ ونشيت !)فإنعقدَ لسانُ أتسيدي، وعجزت ْعن إطلاع أختها بوفاة خطيبِها. وخبأتْ الخبرَ في قلبِها الحزين، وجافاها النوم .

وحينما قطعت المسافة من بيتِ السيدة قسمة إلى نهاية الشارعِ ، بعد أن طلبوا الاستغناء عن خدماتها بسبب معرفتهم لمرض أختها المعدي .. وتم حرمانها من ملاطفة "أمل عبد الرؤوف "، حينما قطعت تلك المسافة ، وانعطفت يساراً ، وهوت مغشيةً عليها .. كان جسدُها الممشوق ، الأسمر .. يتكئ على الحائط ، يُناجي رأفة المسيح ، أن رحماك .!

(تمت).

ملحق:

١ ، ٥ ، ١٢ ، ١٦ ،٢١ : هو الرسم الشكلي للارقام الأمهرية بالترتيب العددي حتى الرقم خمسة.

٢ ، ٧ ، ٩ ، ٢٢ : الشهور وردت في النص حسب التقويم الديني الكنسي لإثيوبيا مع الإشارة للشهر المطابق من التقويم الميلادي في موضعه، عدا شهر باقوم الذي يعتبر نسيء أو مكمل للسنة وذلك لإحتوائه فقط على سبعة أيام.

٣ : جامبيلا هي إحدى مناطق إثيوبيا التسع ، تقع في الجزء الغربي منها ، وتماماً مع حدود السودان والسودان الجنوبي.

٤ : العملة الإثيوبية.

٦ : يقطع نهر البارو بلدة جامبيلا متجهاً نحو الجنوب الغربي، لينتهي متبخراً في مستنقعات مشار ، والقليل منه فقط يصبح رافداً لنهر السوباط .

٨ : هي إحدى المجموعات الطبيعية المهمة في إفريقيا.

١٠ ، ١١ : الإنيجيرا فطائر خميرية إسفنجية تعد من دقيق التف أو الذرة. والزغني هو عبارة عن إدام يصنع غالباً من الدجاج، وكلاهما من الوجبات الوطنية في الحبشة .

١٣ : إنجيلُ متّى ، الإصحاحُ الحادي عشر.

١٤ ، ١٥ : الباقنا آلة مسيقية وترية ، الكابرو طبل إيقاعي له أحجام وأشكال مختلفة.

١٧ : زيٌّ إثيوبي تقليدي .

١٨ : خلطة من التوابل الحارة .

١٩ ، ٢٠ : "تدي" فنان إثيوبي عالمي يتغنى على إيقاع الريقي. والمقطع المذكور في النص هو من إحدى أغانيه ، وقد عُرِّب مباشرة من الامهرية عبر محمد سوفياي.

وقالت اللوحة

حفيظ الحاج :

وجاءَ في سِفرِ القريةِ العتيق مكتوب على الصفحةِ الأولى بلهجةِ بِلادِ النوبةِ أن :

(سعاد بنت نفيسة بنت يو (١) زينب بنت يو فاطمة بنت الحاجّة زوجةُ الرجلِ الصالح القادم من بلادِ العرب ، صاحبُ المَسيدِ الكبير المُقام على ضفّةِ النيل، هي وحدها مَن منحت أهلَ القريةِ وسُكّانَ الأرضِ والعالمين تميمةَ النصرِ وأهدَتهم شِعرَ الخلاص) .

أتوسلُكَ لا تكُن كما الآخرين_ أنتَ أيضاً_ وتتهِمُنا معشرَ اللوحاتِ بالسكونِ والجمود ، لأن الحقيقةَ غير ذلك فاللوحاتُ تتحركُ وتتنفس بل وتدورُ كما تفعلُها الأرضُ من تحتِك تماماً، فانخطافكَ وتسمّرُكَ أمامَ لوحةٍ بعينها لا علاقةَ له بجودةِ الورق أو تناسقِ الألوان ولكن الفكرة تتجلّى في قُدرةِ الرَسّامِ وأحترافيتِهِ في خَلقِ مَدارٍ يَتسِعُ لك ولِعناصرِ لوحتَه حتى تَصبِحا جزءاً من منظومةِ الأرضِ فتَطوفان مِنْ حَولِها كَما تدورُ هي حَول الشمسِ ، وأظنُكَ لا تنكُر حقيقةَ دورانِ الأرض أيضاً، برغم أنكَ لا تشعر بها ولكنك ما أن تقودَ مركبةً فضائيةً وتهبِطَ على المريخِ سترى الأمرَ وتتيقنَه وتخبرَ غيرَك به عند عَودتِك ، وكذا أمرُكَ أنتَ معنا ما عليك الا أن تَشدُد أحزمة حسِّكَ وسمعِكَ وبصرِك جيداً وتحلّق عالياً بين فضاءاتِ رُوحك عندها ستُدرِكَ حقيقةَ حيواتِنا بأمِ عينيكَ وأُذنيك .

الأمرُ برُمَتِه هُناك في القريةِ كان لا يتعدّى سوى لوحة تتحرك، وبالطبعِ ليس ذلك انتهاكاً لقوانين الرسم أو تعدّياً على سيادةِ الإطار، ولكنه حتماً هو قدرة الرسّام البديع _ الله _ على خلقِ ذلك المدار الذي يتسع لكل مَن يَمر بهذه الجدارية، أضف إلى ذلك نشاطُ القريةِ ومَنْ فيها كان كافياً ليجعلني أضجُ بالحياةِ ويمنحُ الألوانَ القُدرةَ على كسرِ أبدية

الجِمودِ ، فصياحُ الدَّيكِ عند خيطِ الفجرِ الأول ، وثرثراتُ النسوةِ مع بعضِهِنَّ في الصباحِ الباكر ، ودُعاباتِ وضحكاتِ ود زياده الجزّار التى لا تتوقَفْ ولا تنتهي ، وصوتُ صافرةِ قطارِ البضائعِ القادم من المدينة ، وتدفّق مياه النيل بديمومة مثيرة نحو الشمال ، ورحلاتُ الشمسِ اليومية التي لم يعرف الكسلُ طريقه إليها شروقاً ومغيباً، وألحان سنبلاتِ القمح عندما تهاوى سيقانها مع الريح ، وصلوات أشجار النخيل الصامدةِ بالرغم من جورِ الزمنِ عليها، وأجتماعاتُ أهلِ القرية حول نِيران حكايات المساء المفتونين بها ، وعُصاميةَ بنتِ نعَشَ المُتأخرةَ _في كَبِد السماء –عن إخواتها فلا هُنَّ قد تعبنَّ من المسير فتوقفنَّ وأنتظرنَّها ولا هي خارت عزيمتها في السعي للحاقِ بهنَّ ، ولا يدري أحدٌ متى ستنتهي مراسمَ جنازتهنَّ المحمولة على العَنْقَريب في منتصفِ السماء ، ذلك الجوُّ المترَعُ بالجمالِ الربّاني وهذه البيئةُ الرسوميةُ الصاخبةُ كانت كافية لأن تجعل قَدَرُ كُل أهلَ القرية مبدعين بالفطرةِ ، وتنجبُ منهم خبراءَ بالألوان وتدرجاتها برغم الجهلِ المزعوم والمُفترى عليهم ، حتى كادت جميع حيواتهم ترتبط وتتعلق بالفن والتصوير، فكانوا يرسمون كُلَّ شيءٍ أحلامهم البسيطةِ ومحبتهم الصادقةِ ، حتى القَدَر الذي جاء إليهم بالخبيثِ بقِطعٍ من الليل ، ذلكم الداءُ كما المُستعمِر أحتلّ دُورِهم وأقام فيها ، تخلّلَ وتغلغلَ بين خلايا أجسادِهم فأصابها بالجنون ، تمدّد بينهم بِلا حَياء ، وأستشرى الموتُ بينهم بشكلٍ مُخيف ، أمست أرواحهم تتساقط وتفيضَ الي ربها بالعشراتِ كل يومٍ وليلة ، كما الهشيم أحرق الصغير منهم والكبير ، فهجَر الرِجالُ حقولَهم حتى أصفرّت وذبُلت ، كَما أصفرّت أرحامُ زوجاتهم أيضاً ، فأي فِلاحةٍ تلك وأي مُعاشرةٍ تجوز بين هذا التوّجس والحطام ، الكلُ وصّد باب داره بما ثَقُل من الأقفالِ ، فالسرطانُ أمسى يباغتهم عبر أوهَنِ الأوجاع التي لم يتوقعوا مراودته لهم من خِلالها ، عبر صداعٍ كان أو حُمّى عابرة ، وحتى الحكيم غلّق شفخانته (٢) وأعلن قِلّة حِيلتِه ، وتبدّلت وظيفته إلى تحويل المُصاب إلى مشفى المدينة ومن ثم يدِّسُ همساً لأهلِه خبرَ بدء موته التدريجي الواقعِ لا محالة، فلم يسافرْ أحدٌ ليتعافى منه وعاد ظافراً ، قاطعَ الجميعُ القريةَ وأُضرِبَ حظراً إجبارياً عليها ، فلا وافدٍ يدخُل إليها ،ولا طالب للنجاةِ يخرج منها ، الجميعُ بِمقدِم هذا اللعين أمسى شاحباً لخوفه أن يصيبه أو يباغته الداءُ ساعة عملٍ أو أمل ، إلاّ سعاد وحدُها من كانت تتماسكُ بابتسامتها وسطِ هذا الإنهيار ، وما زالت فرشاةُ لونها تَراودُ الرسمَ والحياةَ ، تدخلُ في الصباحاتِ الي البِيوتِ الخائفة وبكلماتها الممتلئة إيماناً وحِكمة تَهدّي روعَ الجميعِ

قائلةٌ "إن الموتَ نقاتله بإستعدادنا له لا بخوفنا منه" ، ثم تَجمعُ الأطفالَ حولها وتأخذهم الي المَزارعِ فتَعلّمهم الفِلاحةَ وتشرّبُهم الأمل ، قالتها مِراراً لهم : "الأملُ فيكمُ لن يموت إلاّ أن أموت" ، ،ولمّا سرقَ الخبيثُ منها زوجها وترك لها ثمانٍ من البنات القُصَّر ،خاف أهلُ القريةِ كبارهم قبل أطفالهم أن تُخمَدَ أبتسامتها فتَغرَقُ لوحتهم في السواد ، ولكنها فاجأتُهم بمُصَابرتِها ومُبَاصرتِها في أن تظل إبتسامتها أكثر إشراقاً. فالأمرُ أمانة تقلّدتها وورثتَها عن الرجلِ الصالحِ نقلاً عن أمهاتها الأربعةُ "بأن المصابرةَ مسبحةُ الحياةِ والمباصرةَ تميمةُ الظفرِ فما أنفرَطَ قِرطُ إحداهما إلاّ وغرقت أرواحُكم في المواجِع "ويوماً تلو يومٍ كانت سعاد تترقّ في حِفظِها للأمانة وتعتلي الدرجاتَ فيها ، فعلى الرغم من فجيعةِ التَرَمُّلِ وضَنكُ الحياةِ ما عُرِفِ عنها يوماً شَكَتْ ضِيقَ الحياةِ أو تَبرّمت منه، بل كانت تحتفي بقَدرِها وترضى به ، و كل المتابعين عن قُربٍ رأوا كيف جاهدت في بناتها القُصّر تعليماً وتربيةً إلي أن أبلَغتَهم مَبلغَ الزواجِ والوصولَ لِبرِ الأمان ، ولمّا فاجأهُا الدوارُ ذاتِ يومٍ في رأسِها والوجعُ في بطنِها لم تشعرْ بشئ بعدها إلأ عندما وجدت جسدها يتمددُ علي سريرِ الموت في مشفى المدينة ، ذات السرير الذي فاضت منه روح زوجها وأرواحُ أُمهاتها من قبل ، وبصعوبةٍ بالغةٍ فتّحَت عينها الفاترتين فإذا ببناتها الثمانِ يطوّقنَّ سريرَها الأبيض ، والوجومُ سيّدُ اللحظةِ فلا حِراك لأحدٍ إلاّ خريرَ الدموعِ في المشفى والتوجّس هناك في القرية بإنتظارِ خبرِ فَجيعةِ رَحيلِها ، وحدها سعادُ ما تزالُ تَجاهدُ أبتسامتها برغمِ الوجع على أملِ أن تبقى ولا تفارق ثَغرِها لآخِر ثوانٍ من عُمرِها .

المَشَاهِدُ عند القرية تنقلِبُ اللحظةَ رأساً على عَقِبٍ ،الحقولُ تتفتّحُ أكثر وتخضّر ، العصافيرُ تحتشدُ فوق سماوات القرية ، ورزازُ المطرِ يتساقطُ بعد طولِ إنتظارٍ له ، الغيومُ تُغطي قُرصَ الشمسِ ،ومعزوفةُ موسيقية من بعيد تخترقُ السِكُونَ وتقطعُ وجُومَ الجميع ، الأطفالُ يُحلقّون رؤوسهم صوبَ السماء، المقطوعةُ تبدو أكثر إقتراباً ، لا أحدَ يتبينُ مصدرها ،ولكنها تخترقُ أغشيةَ آذانَهم من كل صوبٍ، تتوحّدُ البيئةُ بأكملها وتذوب بين ثنايا المقطوعة ،الأطفالُ والعصافيرُ والشجرُ سرعان ما انصهروا فيها ككورالٍ لفرقةٍ موسيقيةٍ متمازجة مُرددين مع مصدرِ المقطوعةِ بصوتٍ خافت ولَحْنٍ خلّاب بلهجةِ بلادِ النوبة :

أفيلقوو (٣) أفيلقوو يو سُعاد

ليتَغمّد رُوحَكِ رَبُ العِباد

العصافيرُ تعزفُ لحنَ الشقشقةِ والمطرُ يضرِبُ على دفوف أوراقِ الشجر

ويرددُ الأطفال :

أفيلقوو أفيلقوو يو سُعاد

يو تنزّل المطرُ وتطهّرت من الخوفِ الأجساد

يو بالصبرِ والمباصرة سنُعمّرُ البلادِ

والحمائمُ تتراقصُ كما الحسناواتِ على نغمِ الأطفال ،وتتواصل الأبتهالات

أمبوور(٤) أمبوور يو سُعاد عندَك حيث السماء

أمبوور أمبوور أجزِها عنّا خيرَ الجزاء

والأرضُ إرتوت من ماءِ المطرِ والألحانُ ما زالت تتواصلُ

نمتن نحن الأطفالُ والعصافيرُ والشجر

إذ علمتِنا يو سعادُ من أوجاعِنا نتحرر

أفيلقوو أفيلقوو يو سُعاد

وروحُ سعاد بإبتسامتِها كانت مايسترو الأوركسترا في المشفى ، ورُويداً رُويداً ينخفضُ الصوت ويبدو بعيداً ،متجهٌ صوبَ السُحُبِ ،والجميعُ هناك حتى الرجال مُحدِّقون رؤوسهم نحو السماء، الصوتُ ينقطعُ فجأة إلاّ عن الأطفالَ، هم وحدهم مَن يسمعُ الآن الصوتَ مِن فوقِ السماوات ،المشهدُ حتماً أشبَهُ بالتسليمِ والتسلّمِ لفرقتين موسيقيتين متناغمتين بامتياز ،الأولى هنا في الأرضِ والأخرى هناك فوق السماء ،الأطفالُ يَستمتِعون بترنيماتِ الملائكة وترحيباتهم بروح سعاد

مرحباً يا مرحباً بأصحابِ الميمنةِ

هيا الي الرَوْحِ والرَيَحانِ والطَلَحِ النَضِيد

مرحباً يا مرحباً بعِبادنا البرَره

مرحباً فهمو بين السَلسَبيل والكافورِ

وعوالمَ السُندُسِ والإستَبرقِ والشُرَبِ الطَهُور

المعزوفاتُ لم تنقطع بَعدْ والأطفالُ يسمعون كل شئ، كل التفاصيل الدقيقة التي لن تتوقعها أنت المتسّمرُ أماميَ هُنا ، فحتى حثيثَ خُطواتِ سعاد هناك حيثُ السماءِ كانت تبدو لهم بائنه وكأنها بينهم هنا في الأرضِ .

ولمّا كان يتوجب على كُلِّ من حَضِر ليلةَ الرحيلِ والنصرِ على المخاوفِ وعودة نزول المطر في القريةِ أن يكتبَ ويدوّن ما رأته الأعيُن والتقطته الأذُنُ يومها ،حِفظاً للتاريخِ والأجيالِ القادمةِ ،بين صَفحات سِفر القريةِ العتيق ، كان أبرَزُ ما كُتِبَ فيه وأتفقَ الأطفالُ جميعُهم عليه، بأنهم سمعوا صوتَ سعاد يتخللُ إبتهالاتهم وهي تقولُ : " ستَتَحررُ أجسادكُم من أوجاعِها إن وثَقتُم في عدلِ وتَصاريفِ رب أرواحكُم ".

أنا كلوحة متفهمةٌ لتكوينك الغريزي كأي إنسانٍ مهووس بكل ما هو مُثير، ومُدرِكةٌ أنّ روحكَ تودُّ لو تُمدِد يدَها خِلسَةً لتمُسِك بكتابِ القرية وتلتهمُ كل ما دوّنه الأطفالُ دُفعة واحده وإن تطلّب الأمرُ منك تهشيّمَ الزجاجَ المُتواريةٌ أنا من خلفِه ، لكن يؤسفني أن أخبرُكَ بأن الجميعَ قد أنصرف مِن هنا منذُ ساعة ولم يتبقْ إلا أنت ومسؤولة الحفل الأنيقة التي كافأتَكَ من ذوقها بأربعين دقيقة أضافية من الزمن، وبالرغم من ذلك ها أنت مشدوهٌ مُتسمِرٌ قُبالتي وغير مدركٍ ومُبَالٍ لسيدةِ الحفل الواقفة من خَلفِك مُنذ لحظاتٍ تَستسمحُكَ أن تحجَّ لزيارتنا غداً فما يزال المُتبقي يومانٍ وليلة لنهايةِ المَعرض ، ولتَكُن

روحَك مطمئنةٌ ياسيدي فلديها متسعٌ لِتعاودَ التحليقُ والتطوافُ عند الغدِ بين عوالمُ مَعرَضِ الحَفل وجدارياتِة الأُخريات .

تمَّت

١/ يو : نِداء للأم بلهجةِ بلادِ النوبة .

٢/ الشفخانة : كلمة تركية من أصلٍ فارسي وتعني دار الشفاء أو المستشفى .

٣/ أفيلقو : تعني وداعاً أو مع السلامة بلهجة بلادِ النوبة .

٤/ أمبوور : تعني الله بلهجة بلاد النوبة .

إنعتاق روح

<u>أيمن محمد :</u>

أَنَا لَا أَشْعُرُ بِمَا تَشْعُر، وَلَا أَتَأَلَّم بِمَا يُؤَلِّمُك، أَنَا فَقَطّ أُنافِقُ بِإِسْمِك.

غَارِق أَنْت بَيْن نُتُوءَات الذَّات ، تَتَوَسَّل نَوَامِيس الْكَوْن أن اصْبِرِي عَليّ وبشرِيني بأفْيَاض سَعَادَتك ، واقْذِفِيني عَبْر نوافذَك إلى قَارِعَة الْفَرَح، تَصْرُخ فِي صَمْت عَال، تُنَادِي أحْلاَمَك الآفِلة ، وَسِنِينَ عُمُرِكَ الَّتِي كَشَفَتْ لِثَام الْهُرُوب، دَثريني دَثريني، زَمليني زَمليني، ثُمّ لَا تَسْمَع إلّا رَجَع صَدَاكَ وَقَهْقَهَة الْقَدَر.

قَلْبُك يَسْتَجْدِي عَقْلَك فَلَا يَجِدُه، عَوَاطِفُك مُنْهَارَة وَقَد مَسَّهَا شَيء مِن صَدَأ، ◌ُروحكَ الْمُتْعَبَة تُنَاشِدُ عِزْرَائِيلَ الْخلاص، وَتُغَازِل أَخَوَات لَهَا سَبَقْنَهَا إلى عَالَم الْبَرْزَخ، يَنْتَابهَا حَنِين عَامِر،تنَادَيْ وَتُنَادِي حَتَّى يبحّ صَوْتُهَا، وَكَم مِن مَرَّة حَدَّثَتْكَ نَفْسُك الْأَمّارَة بِالْخلاص، بِأَنّ تَقِف وَسَط الشَّارِع، ثُمَّ تُجَرِّدُ نَفْسَكَ مِن عَوْرَة الْمَلَابِس، وَتَصْرُخ، نَعَم تَصْرُخ: الْخلاص الْخلاص.

وَلَكِنّ نَظَرَات الْمَارَّة، الْبَاعَة الْمُتَجَوِّلُون، أَصْحَابُ الدَّكاكِين، ثُمّ بَائِعَة الشَّاي الْحَسْنَاء وَهِي تَضَعُ الشَّاي أَمَام الزبَائِن، جَمِيعُهُمْ يُشْعِرُونَكَ بِالْاِسْتِياء وَالْخَجَل، فَتُوَاصِل تَأَمُّلَك لِلْنَار الَّتِي أَدْمَنْت إيقَادَها وَسَط الْمَزْبَلَة، بَاحِثاً عَن الدِّفْء وَالْحنْوَ، تَسْتَمْتِع أَنْت بِمَنْظَر الْوَرَق وَهُو يَتَلَوَّى بِفِعْل النَّار، ثُمّ يَسْوَد فَيَصِير رَمادا، حِينَهَا فَقَطّ تَعْلُو ثَغْرَك الْجَافّ اِبْتِسَامَة مَيتَة، فَسَرَّتْهَا بَائِعَة الشَّاي الْحَسْنَاء عِنْدَما لَمَحَتْك فِي ذَاتِ الِتِفاتَة بِأَنَّهَا اِبْتِسَامَة سَاحِرَة، وهي التي تحدثك بِعَيّنَيْهَا عَن ذَاتِكَ الَّتِي تَجْهَل، عَن الضَّوْء لَحْظَة عِنَاقِهِ لِهَامِش أرْصِفَة الشَّارِع، عَن الْحُكُومَة، الشَّمَال وَالْجَنُوب، الْعُنْصُرِيَّة، وَمَايَدُور فِي دَهَالِيز الْكَوْن، لَكِنَّك كُنْت تُرِيد أَكْثَر لِذَلِك اِنْتَظَرْتَ لَحْظَة أن تحدثك بالروح والجسد، عِنْدَما أَتَتك مُهَرْوِلَة ذَات صَبَاح بِذُعْر، وَكَأَنّ طَارِئا قَد طَرَأ، وَقَالَت: اهْرُبْ أَو اِنهم سَيُعِيدونَك إلى الْجَنُوب.

كُنْتَ تُرَاقِبُ ثَغْرَهَا وَهُو يَتَرَاقَص بِتِلْك الْكَلِمَات، بَيْنَما ظَلّ فَاهكَ الْمَشْدُوه يُدَاعِبُ صَدَى اِبْتِسَامَة بَعِيدَة عَفَا عَلَيهَا الدَّهْر، لَم تَكُنْ تُدْرِك أَنَّك وَفِي هَذَا الْيَوْم عُقِدَت فِي شَأْنِك مُؤْتَمَرَات تَبُتُّ فِي أَمْر وَطَنِيَّتِك وَهُوِيَّتِك الَّتِي لَيْسَت بَيْن يَديْك،عَقَدُوا أَمْرَهُم عَلَى أَنّ

يُعِيدُوك إلى مَكَان لَم تَأت مِنْه قبلا، وَلَو سَأَلُوك عَن مَوْطِنِك مُؤَكّد سَتُشِير إلى الْمَزْبَلَة وَلَكِن لَايَعْلَمُون، فَلَوْنُكَ الأبَنُوسِي وَقَامَتُكَ الطَّوِيلَة الَّتِي تُعَانِق سَمَاوات عُلْوِيَّةً يَقُولَانّ غَيْر ذَلِك، وَبَيْن لَيْلَة وَضحَاهَا فَقَدْتَ عَبَقَكَ الَّذِي صَبَغ فِيك تَمَيُّزَا لَذِيذَا مُخْتَلِفًا، وَأَصْبَحْت مُجَرَّد لاَجِئ لَا وَزْن لَه وَلَا قِيمَة.

ثُمّ أَغْمَضْت عَيْنَيْكَ لِبُرْهَة، وَلِلحظَات كَانَت الْأَسْئِلَة وَعَلَامَات الاسْتِفْهام تُرَافِقُ عَرَقَكَ مِن الْمَنْبَع إلى الْمَصَبّ، مَا الَّذِي يَحْدُث هُنَا، لَم أَعُدْ أَفهَمُ حَقِيقَة الْأَشْيَاء، وَأَيّ جَنُوب سأعُود اِليه؟ وَمَنْ هَذَا الَّذِي يَجْرُؤ عَلَى اِقْتِلاَعِي مِن بَيْن أتُون هَذَا الْوَطَن، ثُمّ أَحْسَسْت وَكَأَنّ الْمَكَان مِن حَوْلِكَ يَدُور بِسُرْعَة مضْطَرِدة،وَكَأَنَّك أَصْبَحْت مَرْكَز دَورانِه الأَبَدِي، الْأَرْض،الشَّمْس،الْكَوَاكِب وَالنُّجُوم وَحَتَّى الْبَشَر اِتَّخَذُوكَ مَرْكَزا لِلْدَوران،وَمَا إن فَتَحْت عَيْنَيْكَ حَتَّى كَانَت الشَّاحِنَة تَتَقَافَز يُمْنة وَيُسْرَة، تُسَابِقُ الرّيح نَحْو مَكَان مَا أَقْصَى الْجَنُوب، هُنَاك حَيْث سَتَعِيش مَا تَبَقَّى لَك مِن شَهقَات وَزَفرَات، أَخْبَرُوك بِأَنَّها سَتَكُون عِيشَة رَغِيدَة، حَيْث الْغِلْمَان الْمُخَلَّدُون وآنِيات الذَّهَب وَالْفِضَّة،إنّها الْجَنَّة، وَلَكِنّ مَاذَا يَعْنِي ذَلِك ؟

تَتَلَفَّتَ حَوْلَك فِي اِمْتِعَاض، نَظَرْت إلى الْوُجُوه الْمُسْتَكِينَة فِي ذَلل مِن حَوْلك، مَا هَذَا الْبُؤْس؟ وَتَسَاءَلْت: هَل نَفُوكُمْ كَمَا نفوني أَنَا؟ وَحَدثت نَفْسَكَ: لِمَاذا يَرْمُونَنِي خَارِج الْوَطَن، مَن قَال لَهُم أَنِّي أَنْتَمِي إلى ذَلِك الْمَكَان؟ وَمِن فَوْرِك وَفِي لَحْظَة جُنُون جَامِح قَررتَ الْعَوْدَة،صَارَعْت الْحارِس الَّذِي عِنْد بَاب الشَّاحِنَة، أَلْقَيْتَهُ أرْضا ثُمّ قَفَزْت كَفَرَس رِهان، وَرَكَضت نَحْو مَا ظَنَنْتَهُ طَرِيقا لِلْعَوْدَة،تَتَلَمَّس شَفَقا وَاهِنا بَدَا لَك وَكَأَنّ مَنْبَعَه عِنْد مَزْبَلَتِكَ، لَمَتَأْبَه لقوالكَ الَّتِي بَدَأْت تَخِرْ، وَلَا لِصَوْت الْحارِس وَهُو يُنَازِع آلاَمَهُ بِأَنْ عُد أَيُّهَا الْغَبِيّ، وَلِأَوَّل مَرَّة بَدَأْت تِلْك الْوُجُوه الشَّاحِبَة الْبَائِسَة بِالصِّيَاحِ، عُد عُد عُد، وَمَا أَنّ يُكَرِّرُونَهَا عِدَّة مَرَّات حَتَّى يُرْدِفُونَهَا بِلَفْظَة غَبِيّ،اِسْتَغْرَبْت فِي نَفْسِك، لِماذا كَرِه هَؤُلَاء الْوَطَن فِي سَاعَات،عُقُولُهُمْ تَشَربت بِسَواد اذ لَفَظَتْ عشْرَة عُمُرٍ فِي هَذَا الزَّمَن الْوَجِيز، ثُمّ وَجَدْت نَفْسَكَ تَصِيح بِصَوْت مَسْمُوع: الْوَطَن عِنْدِي أغْلَى مِن أَي بَدِيل، وَكَمَا رَفَع غَيْرِي السِّلَاح لِأَجْلِهِ، أَعُود أَنَا رَاكِض إِلَيه، فَالرَّوح بَيْن ثَنَايا بُؤْسِها تَرْبِضُ بِسَكِينَة، وَالْقَلْب فِي بُعْدِه لَا يَنْبض، لَكِنّ الصَّيْحَاتُ لَم تَتَوَقَّف، وَازْدَادت ضَجِيجا: غَبِيّ غَبِيّ غَبِيّ، حَتَّى أَشْجَارالْغَابَة مِن حَوْلكَ وَطُوب الْأَرْض بَدأ يُرَدِّدُ: غَبِيّ غَبِيّ غَبِيّ، لَكِنَّك لَم تَتَوَقَّف، وَلَم تَكْتَرِثَ حَتَّى سَمِعْت صَوْتا

مُدَوِّيا، وَأَحْسَسْت بِشَيْء صَلْب يَخْتَرِقُ صَدرِكَ وَيُبَدِّدُ حُلم الْعَوْدَة، تَحَامَلْت عَلَى نَفْسكَ وَوَاصَلْت الْمَسِيرَ،وَلَم تَمضي دَقائِق حَتَّى كَان الْبَارود يَنْهَال عَلَيك مِن كُل الاْتِّجَاهَات، وَبَعْض الرَّصاصَات كَان لَهَا طَعْم الْمَزْبَلَة حَيْث أَتَيْت، وَأُخْرَى خَمَّنْت أَنّ لَهَا مَذَاق الْوَطَن الْجَدِيد.

وَخِلَال لَحَظَاتٍ انسل الإِخْوَة الأَعْدَاء مِن كُلّ حَدَب، كُل مِنْهُم يَحْسَبُكَ الآخرَ، وَمَا إن اِلْتَقُوا حَوْلَك وَأَنْت تَسْبَح فِي بِرْكَةِ دَمِك حَتَّى عَلَت وجُوههمْ الدَّهْشَة، وَتَسَاءَلُوا فِيمَا بَيْنَهُم، هَل هَذَا مَعَكُم؟ ثَمّ تَفَرَّسَ كل مِنْهُم فِي وَجْه الآخر، وَصَوَّبَ كُلّ مِنْهُم بُنْدُقِيَّتهُ نَحْو أَخِيه، لَكِنَّك رَفَعْتَ يَدَك مُحَاوِلا إيقَافَ الْمَعْرَكَة الْحَتْمِيَّة، مَا هَذَا الْعَبَث؟ انْظُرُوا الشَّمْس تَشْهَدُ عَلَيكُم وَالشَّجرِ، وَالرَّب فِي عَلْيائِه يُرْسِل عَلَيكُم لَعنَاته،دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُهْلِكَة، فَأَنْزَلُوا أَسْلِحَتَهُمْ وهاهُم يَنْظُرُون إلى دِموعكَ الَّتِي بَدَأْت بِالذَّوَبَان عِنْد أَطراف مُقْلَتَيْك، وَسَالَت عَلَى خَدِّك لِتَنْفَصِل عَنْك فِي مِشْوَار رِحْلَتِك الأَخِيرَة نَحْو الْعَالَم الآخر.

وهاأَنْت ذَا الأن تُعَانِق بِعَينيكَ عَنَان السَّمَاء، تَخَطَّيْتَ حُدود اللامعقول إلى الْمَعْقُول، كُشِفَت لَك أَسَارِير الأَرْوَاح الْمُحْتَجِبة خَلْف أَبْوَاب السَّمَاء، رَأَيْت فِيهَا روحَكَ الْمُعَذّبَة تُعَانِقُ الْخلاص أَخَيْرا، وَفِي لَحْظَة رَأَيْت كُلّ مَا قَد مَضَى بِك يَمَرُّ أَمَامَك،وَكَأَنَّه مَشْهَد سِينَمائِيّ، فيلم عَال الْجَوْدَة، مُتْقَن الصَّنْع وَالإِخْرَاج، سِينارْيُو خَطَّتْهُ يَد الْقَدَر، طِفْل رَضيع مُلْقى عَلَى ظَهْرِه وَسَط مَزْبَلَة، تَلْتَقِطه دَوْرِيَّة لِلْشُرْطَة ذَات مَسَاء، يُودَع دَارًا لِلْرِعايَة، ثُمّ يَخْرُج لِيَجِد نَفْسَهُ وَسَط الْمَزْبَلَة مِن جَدِيد،وَلَكِنّ هَذِه الْمَرَّة رُمَاه مِن تَعَهَّدَ بِرعايَتِه مِن بنِي الْبَشَر.

ثُمّ تَرَقَّت الرّوحُ فِي مَرَاتِب الْغَيْب، وَارْتَفَعَتْ رِيشَة الرَّسَّام لِتُصَوِّرَ الْمَشْهَد مِن أَعْلَى تَلّ فِي الْغَابَة، أَرَوَاح كَثِيرَة تَتَرَاقَص فَرَحا بِالْقَادِم الَّذِي أَفلَتَ مِن دُنْيَاه،الأَشْجَار الْغَاضِبَة مِنْك وَلَك، بَدَأْت تُرَدِّدُ تَرْنِيمَة الْمَوْت الْمَجِيدَة، ثُمّ تَمْزُجُهَا بِمِيَاه النِّيلِ فِي طَقْس رُوحَانِيّ خَالِص،لِيَجْرِي النِّيلُ مُسْرِعَا نَحْو الشَّمَال يَحْمِل أَخْبَارَك، فَتَهزّأَشْجَار النَّخِيل جَرِيدَهَا مَع أَوَّل هَبُوب تَحْمِلُكَ، وَلَوْلَا أَنّ الرّوحَ قَد انْعتقَتْ لَمَّات النَّخِيل أَلَمًا وَحُزْنا.

الدورة السابعة

٢٠١٥ م

- <u>المؤود (يس الملك) :</u>

هناك دائماً مثير للكتابة، مثلما أن هناك سببٌ لكل شيء، فالنص صدى لأحداث حقيقية، وتأثير هذه الأحداث ولّد في نفسي طاقة لا عهد لي بها في الكتابة، وبفضل هذه الطاقة تجمّعت معارفي عن القصة.. فكان هذا النص.

- <u>فانتازيا المهرج (طلال الطيب) :</u>

هو نص كتبته قبل عام أو أكثر. كتبته على دفتر صغير أبيض وقد استمتعت بكتابته. كتبته تأثراً بفيلم أمريكي اسمه (The sin city) وابتكرت عالمي الخاص. فكل ما في النص محض خيال أو قصدت به أن يكون خيالا. (نساء سمينات مثل حيتان البحر، رجال رؤسهم كبيرة مثل رؤوس الثيران، سماء لونها أصفر وأخضر). الشخصية تهزم ولا تموت وتحاول أن تنتصر مرة أخرى. النص دائري ينتهي من حيث يبدأ بمعنى يمكن أن يستمر إلى الأبد. مثل الصراع بين تجار المخدرات ومن يحاول أن يقضي عليها ولكن الشاهد بأن نفس الذين يحاربون تجارة المخدرات هم من يتاجرون بها ، النص لا يقصد التعبير عن مشكلة المخدرات وعن أي مشكلة في الواقع. هو مجرد شيء أتاحت له ظروفي النفسية أن يكون موجوداً.

- <u>حكاية العجوز (راشد يسلم) :</u>

من الصعب الحديث عن تاريخ وأسباب النصوص المكتوبة بالنسبة لي كما لو أنها نصوص مقدسة، فالكتابة هي محاولة لحماية أنفسنا من تصديق كل الذي نقوم بقراءته ، لذا فهي عملية مقاومة غير مجهز لها ولا تنطوي على دراسة وتخطيط ، وفي حكاية العجوز أحاول أن أجيب عن تلك الأسئلة التي ترهقني، ولأنني قلت أحاول فإن إمكانية النجاح أو الفشل تظل نسبية.

- <u>ذبول الياسمين (سحر عظيم) :</u>

هي للأسف قصة مقتبسة من واقع جيل كامل، ومشهد يتكرر بتوالي مخيف. ومحور القصة بتتكلم عن الصدمة أو الخذلان العاطفي سواء كان من قبل الرجل أو المرأة؛ هذه القصة أكثر قصصي التي أرهقتني في كتابتها وأخذت زمناً طويلاً، ويكمن الأرق الذي جابهته معها أنني تنقلت في مكان وزمان القصة، وحاولت أن أجعل أم ياسمين في رحلة جوية وأخرى برية وأيضاً وضعتها في الريف فلم أوفق إلا حين صغت أحداث القصة في السفينة وعمدت لأن تكون مجريات القصة في رحلة أو سكة سفر محاولة مني لإيصال الفكرة للأشخاص المهزومين عاطفياً أو المصدمين.

المــــوءود

يس الملك :

مدخل:

في هذا الزمان، كل ما مكث زمناً في قائمة المستحيلات أضحى ممكناً، وصار الأعوج مستقيماً، و تماهى العيب في الجائز، و اهترأت حنجرة الحق.

ثم صاح القضاء: كوني، فكانت *** طينة البؤس شاعراً مثالا*

*إدريس جماع.

النص:

منذ أن صرتُ أشبه الآدميين أصبحتُ أشعر بالعالم من حولي .. لكنَّه لا يأبه بي كثيراً، ولا حتى صاحب هذا السجن الضيق ! .. أعتقد أنني جزء من هذا الجسد الكبير .. أشعر به ويشعر بي .. يأتيني الطعام عبر حبل مجوف متصل بأحد جدران الغرفة .. أتصل به بطريقةٍ ما، فعندما يغضب أغضب .. يفرح فأركل أنا الجدار المقابل. أرى كل من يتحدث إليه وأسمعه؛ وكأنني أنظر إليه من خلف جدار شفاف .. أهمّ بالرد عليه؛ تمنعني الجدران فأركلها. لماذا أُوضع في مكان ضيق كهذا؟! لا أملك أي وسيلة للتعبير سوى الركل بأرجلي، فصوتي لا يمكن سماعه، هل يعلم هؤلاء أنني هنا بالداخل؟!

ينفرد جسمي الكبير مع جسد آخر .. أسمعه يقول: (إهدئي يا امرأة) وترد هي: (لا أقوى يا رجل) ما الفرق بين الرجل والمرأة؟! يتداعبان ويضحكان .. ينطفئ الضوء بالخارج وأصبح أنا في ظلمتين .. يسكن كل شئ؛ حتى تلك التي تدور بالسقف .. يعلو الهمس والتنفس .. يلتصقان بشدَّة .. أرى في نهاية غرفتي الضيِّقة عصبة طويلة مستديرة، تقترب مني فتتسع

فتحة النفق، وتبتعد لتنغلق .. لابد أنني دخلت هذا العالم نتيجة إتحاد مثل هذا في يوم ما .. تضيق بي الغرفة وتتسع في حركة مضطربة .. يتداخل الجسدان حتى يَصعُب فرزهما .. يزدادُ التوتُّر واللهاث .. يتأوَّه بصوتٍ غليظ، وتتأوَّه بصوتٍ رقيق .. ثم ترتخي عضلات غرفتي لأتنفس الصعداء ! .. أشعر بأن الحرارة مرتفعة ...

الآن لدي يدين ورأس به عينين وأنف وأذنين، ورجلين هما أكبر أطرافي بينهما عضو ما، يشبه تلك العصبة المستديرة لكنه أصغر. كيف نبتت هذه الأشياء؟! .. أريد عالماً أوسع لأركض برجلي .. لألوح بيدي.. أهناك غيري في غرفة كهذه؟!، لأرى من يشبهني، أظن أن شكلي سيصبح مثل ذاك الرجل! .. سأخرج في يوم ما .. أعيش الحياة كما ينبغي، سمعتها تقول: (إن بعض الناس طيبين)؛ أهم طيبون مثل ذاك الرجل .. يجعلونها تضحك وتصرخ؟!، وتقول أيضاً: (أنهم يتبادلون الحب، ويتفقدون بعضهم، وهناك شمس تضيء عالمهم، و قمر يرسل شعاعه الفضي في ليالي سمرهم، و ليلٌ ونهار، و ثمرات ومأكولات طيبة، و ملابس أيضاً!) .. أنا متلهف لحياتهم تلك ...

أنام معظم الوقت لتكبر أحلامي، لكن في هذا اليوم استيقظتُ مبكراً .. فالحبل الذي يصلني بالغرفة لم يمتلئ منذ أمس .. أرى سيدتي مستلقية على فراش أبيض، تتصل بها أسلاك موصولة بجهاز يصدر صافرات متتابعة .. يأتي شخص يرتدي الأبيض .. يتحسس صدرها بشئ معلق في أذنيه .. يُدوِّن شيئاً في مفكرته .. يتحدث مع شخص آخر .. ثم يدير هذا الأخير أزراراً مستديرة في الجهاز يمنة ويسرة، ويحقن تلك القربة المعلقة والموصولة مع منتصف يدها بسائل شفاف .. يضع يده على جبهتها .. يبحلق بعينيه نحو سقف الغرفة ثم يذهب ...

إستيقَظَتْ سيدتي.. تناولت بعض الماء .. تمنَّيتُ لو تستجيب لصاحب الزيّ الأبيض وتأكل شيئاً؛ فهي كلما فعلت ذلك أشبع أنا، لكنها لم تفعل، و قالت: (أريد إنزاله) .. إنقبَضَت عليّ جدران الغرفة .. فقد كانت تُحاول أن تجلس. تفاجأ صاحب السماعة ورفض طلبها حتى قبل أن يفكر لثانية واحدة.. أخرج مذكرته وكتب عليها شيئاً. لحظات وكانت خارج ذاك المكان. وسمعتها تردد في نفسها ذات العبارة مرات ومرات، وفي كل مرة يزيد إصرارها وتنطقها بحرقة أكبر، وعندما يطفح كيل ضجرها تشتم أحدهم بعباراتٍ غريبة، ثم أخَذَتْها

نوبةُ تفكير ... كنتُ أنا أيضاً أفكر، فهذا هو الشئ الوحيد الذي لم تمنعني منه هذه الجدران الطرية.

طاقاتٌ جديدة بدأت تنبعث من صدري. سمعتهم يتحدثون عن الشوق، لكنهم بالتأكيد لا يعنون ما أشعر به تجاه هذه السيدة؛ إذ يمكنني الإمتناع عن الأكل ليومين مقابل أن أرى وجهها؛ فهل يعنون ذلك؟ .. في هذه الأثناء قالت: (إنه الأصيل ولم تأتِ تلك الحمقاء بعد!) ..

أحدهم طرق الباب .. تدخل سيِّدة نحيفة، يتدلّى من يمينها مربعٌ أسود .. تضَعَه على طاولة بالقربِ من السريرِ الذي تستلقي عليه سيدتي. سمعتهم ينادونها (داية) .. تقترب من أذنها .. تهمس: (سنقوم بذلك). شعرتُ أن الحديث يخصني .. أصغيتُ جيداً .. (سنخرجه حياً أو ميتاً) .. ماذا فعلت أنا؟! هل لأنني أركل كثيراً؟! ألا أستحق أن أصبح مثلهم: حُر؟! .. لا أعرف ما هو الموت بالضبط، أظنه شعور قاسي، عندما يحدث يمنع حدوث غيره ويفرض السكون على كل شئ .. وربما أن يتولى الآخرون أمرك؛ يعني أنك ميت بشكل أو بآخر .. حينما أخرج سأخبرهم بفعلتهم .

أنا قلقٌ جداً. فقدتُ رغبتي في الخروج شيئاً فشيئاً؛ فسبعة أشهر ليست كافية. بدأت أحلامي تتبخر؛ فعرفتُ أن العجز عن الحلم لهو إحساسٌ أقسى من الموت نفسه!. أصابني أرقٌ شديد، لم أنَم مُذ سمعتُ ذلك الحديث. شعرتُ أنني لست محظوظاً. لَربما كان من الأفضل لو لم أركل تلك الجدران!

الشمسُ تزحف بعيداً وتنذر بالظلام. الغرفة بالخارج تتسع لأكثر من شخص واحد، عليها أشياء بأربعة أرجل مربعة السطح، على إحداها الكثير من القطن وقطع القماش. تشمِّر السيدة الغريبة أكمام قميصها الضيق .. ترفع سيدتي رجلها وتحنهما من عند الركبة مباعدةً بينهما؛ فبدا مجدداً ذاك الضوء في آخر الغرفة، لكن الفتحة أكبر الآن، وثابتة. كنت متلهِّفاً لتلك الأشياء التي سمعت عنها ولم أختبرها: أحلامي بالحب، اللهو، الأكل، الجري، الكلام، الشمس ... بدأت السيدة الغريبة تضغط عليَّ من الخارج حيث أضع رأسي. تأخذ سيدتي نفساً عميقاً وتكتمه لِتَشتدَ قبضةُ الجدران عليَّ وتدفعني نحو الضوء .. تزداد حرارة جسدي .. أنزلق نحو الفتحة التي بدأت تتسع كلما ضغطت أرجلي على

الجدران لينساب باقي جسدي بسلاسة .. بدأتُ الإنزلاق نحو الضوء؛ ذاك الشئ الأبيض الذي طالما تمنيت أن أراه! أحاول التشبث بأي شئ؛ كالغريق الذي يمسك بقشة (كما قالت سيدتي ذات ورطة!) .. أصبح صراخها عالياً حتى أحسست بأوردتها ستنفجر. لامَس الهواءُ أرجلي ثم غَمَر كامل جسدي فأُغميَ علي ...

الآن أصبحت جسداً لوحدي. كانت هيَ متعرِّقة ولاهثة، سيزول عنها الألم وستفرح حينما تراني. ثم وعيتُ شيئاً فشيئاً .. لن أزعجها بصراخي لأني أيضاً مرهق جداً .. لكن بطني فارغة وهذا يؤلمني، فصرختُ .. إندَهَشَتِ السيدةُ الغريبة .. واندهَشَتْ سيدتي! كأنهما لم تتوقعا أنني ما زلتُ حياً، وبدت حزينة ومحبطة؛ مثلي تماماً! تقول لي فطرتي أن الضحك يسحر الأمهات؛ لذلك حاولت الضحك لكن زاد صراخي، ولم أكن أتقن الضحك بعد ...

أشعر بحنين إلى كرتين كبيرتين في أعلى صدرها، يدفعني إليهما إحساس بشهية مفرطة وجوع يومين. حملتني؛ فاقتربتُ من هدفي .. يجب أن تُقرِّبني أكثر حتى أمتصهما. وبدأتُ أفقد القدرة على الحركة، لكنها سارت بي، في تلك الليلة الشتوية، نحو منزلٍ مهجور، ليس به غرف، فقط أسوار كلها من الطين.

البردُ ألزم الناس مآويهم الدافئة. وضَعَتْني على الأرض و بدَأَتْ بالحفر. إحدى عينيها تتابع الحَفر والأخرى تتابع مُحيطَ المنزِلِ الخالي. حينها، آخر أحلامي ودعني وصعد نحو السماء. الشوقُ إلى تلك الغرفة الضيِّقة يعتصر قلبي الآن: تذكرتُ الأمن و السلام، الهدوء، الطعام سهل الهضم، همَسَ لي خاطرٌ يائس: (الذكريات هي الكائن الوحيد الذي يستعيد حياته ذاتياً، ونشعر بها كما لو أنها تحدث الآن)!

إنها تتألم ومجهدة. ودَدْتُ لو أساعدها؛ لكنني جائع، ولا أستطيع حتى الصراخ؛ لأن فمي ملفوفٌ بذات القطعة التي تلُف بها جسدي. جعَلَتِ الحفرةَ بمقاسي تماماً، ثم أسقطتني. تألّمتُ؛ فأفزعها صوت ارتطامي. أهالت عليَّ التراب. امتلأ أنفي وفمي فاختَنَقْتُ. شعرتُ أن الكون يصرخ عنّي!. مندلَت التراب فوقي بأرجلها ليتساوى مع الأرض. وهبَّت ريحٌ غاضبة؛ ساعدتها في تسوية التراب. نفضَت يديها، وتلثَّمَت بطرف ثوبها. إستَطلَعَت الشارع، وهرَعَتْ نحو البيت تترنَّح من الإرهاق... حينها أدركتُ أن الجحيمَ تحت أقدام بعض الأمهات !

فنتازيا المهرج

طلال الطيب :

الساعة ٨ مساء (لوحة الشيطان)

الهواء يبكي هنا عيونه حمراء لامعة جسده كثيف وغليظ ، والهواء هنا مدمن حتى النخاع ؛ تجري في شرايينه رائحة المخدرات ، يتعاطى حبوب الهلوسة فهو مهلوس حين يسكن وحين يثور .

الهواء عندما يخرج من صدور المرضى والمصابين بالإيدز يبكي ويهب في كل الشوارع يبحث عن النقاء والخلاص .

المدينة مبانيها ضخمة ، سكانها كبار ، رؤوسهم ضخمة مثل رؤوس الثيران والنساء هنا سمينات مثل حيتان البحر . لكن ما إن يبللك الهواء بدمعه النزق حتى ترى بأم عينيك بأن الناس هنا نمل محروق بنار !

أنا أمشي في شوارعها ليلا يرافقني القدر يقول لي كلاما أشعر به ولا أفهمه . أشعر وكأني كنت شيطانا فأعلنت توبتي وصرت رجلا حقا لا أعلم ؟

لعل الحمامة الضعيفة الواهنة تخبرني من أنا ؟ حلقت الحمامة وهي ممزقة الريش أمامي وسقطت على الإسفلت ، وسمعت صوت ارتطامها بالشيء الأسود اللامع ، ولأنها في طريقي خطوت نحوها . قلبي سألها : هل مزق المرض ريش روحك الطيبة ؟

أخرجت سكيني .فتحت حويصلتها وجدت حبات حمراء وخضراء وبيضاء . وواصلت السير وللحظة كأني أشعر بروح هائمة وبأن الضوء يتراجع عن الزوايا المظلمة ، نظرت لجدار لونه أحمر يسيل عليه الدم ورأس مهرج معلق عليه . مثل لوحة فظيعة رسمها شيطان .

رأس مهرج معلق على الجدار كما يعلق هواة الصيد رؤوس طرا ئدهم . أعجبني منظره وهو يرتدي باروكة شعر لونها أحمر وعلى وجهه مساحيق التجميل .

تناولته من على الجدار وكان الدم لايزال يقطر منه ؛ لابد بأنه علق هنا قبل ساعة .نظرت إلى فمه وجدته كبيرا شاسعا لابد بأن ابتسامته كانت كبيرة ولابد بأن ضحكاته كانت صاخبة ، وضعته في حقيبتي ومشيت به إلى حيث شقتي . شقة تعرفها بائعة هوى دائما تقول لي :

_ أنا أثق بك لأنك تبدو لي نقيا .

تنمو غابة استوائية في فراغ غرفتي حين تنفث دخان سيجارتها :

_ أشعر بالأمان معك ، أنت لا تتاجر بالمخدرات ولا تتعاطها .

وتنظر إلي بحنان وتقول :

_ من بين كل زبائني أنا أشتاق إليك .

وكلما غادرت شقتي تنسى شيئا ؛ دائما مستعجلة تنسى قارورة عطرها ، لباسها الداخلي ولكنها لا تنساني تأخذني معها في قلبها كما تقول لي .

الساعة ٣ بعد منتصف الليل (عضة جرذ)

علقت رأس المهرج على جدار غرفتي ، وفكرت في صاحب الأعصاب الحديدية الذي فصل رأسه عن جسده . هل أطلق المهرج مزحة لم تعجبه ؟

وأنا أضع رأسي على وسادتي نظرت إليه بواسطة ضوء فضولي يأتي من الشارع عبر النافذة ، فتلاقت عيوننا وشعرت بأنه يحدق في وكأن حاجبه الأيسر تحرك نحو الأعلى وكأن إنسان عينه يضيق ويتسع حسب درجة الضوء وكثافة العتمة . وسألت نفسي : هل أنا مجنون ؟

لست مجنونا ؛لأني تذكرت بأن رأسه سوف يتعفن وعندها سوف تعم رائحته الكريهة المبنى كله . لهذا قررت وضعه في الثلاجة مع الطعام المعلب .

فكرت في هوية صاحبه لهذا أخرجته من الثلاجة ودخلت به إلى الحمام وأخذت أغسله من مساحيق التجميل التي عليه ونزعت عنه باروكة الشعر. والآن أستطيع معرفة شكله . عينان كبيرتان ، شعر أسود سبيبي ،وجه هادئ ومسالم فم كبير وشفتين متورمتين .

خفق قلبي بشدة كم يشبهني هذا الرجل وكأنه أنا ! وأخذت أقارنني به . له كل تفاصيل وجهي ، وتفقدت أذنه اليسرى فيها أثر عضة ؛نفس التي في أذني اليسرى إذ عضها جرذ عندما كنت نائما ذات يوم في الشارع .

رميته بسرعة وكأني خفت أن يعضني !

لمحت علبة زينة بائعة الهوى التي تتمنى لو أمنحها طفلا (سوف أنجب ملاكا . أرجوك ساعدني) هكذا كانت تقول .

أخذت أضع البودرة على وجهي وبأحمر الشفاه رسمت ابتسامة عريضة وأطلقت ضحكة صاخبة عندما تأملتها على المرايا .

الساعة ٤ صباحا (الفتى وبنات السماء)

زرعت مسدسي في حزامي وخرجت وفي رغبة أن أقتل شخص ما ؛ لأني أشعر بأني أرتدي قناعا ؛ لهذا بائعات الهوى يضعن الكثير من مساحيق التجميل حتى يشعرن بأنهن يرتدين أقنعة تخفي ملامحهن الحقيقة فيمارسن البغاء بملامح مزيفة .

السماء لونها أصفر والأضواء ذات إزعاج تضيء سحاب هزيل ومريض وأدخنة حمراء وصفراء وسوداء تطلع من البيوت والمباني الشاهقة . الفجر قريب . تنفست بعمق رغم أن الهواء بارد وميت .

الشوارع خالية إلا من كلاب تهرب عندما تحس بوجودي وشخير بعض المتشردين يشعرك بأن الأزقة والجدران لها شهيق وزفير.

_ أنت أيها المهرج .

صوت ضعيف ولكنه مرح ، رأيت صاحبه كان شابا صغيرا يجلس متكئا على مبنى إسمنتي قديم . وكان يرتدي حذاء رياضيا أنيقا وبنطال جينز وكما أنه يرتدي (تي شيرت) عليه صورة (جيفارا) ورأيت سماعة الأذن تستريح على صدره وتصدر منها شظايا موسيقى خافتة ، وكما أنني شممت رائحة البراز تفوح منه . قال لي ضاحكا :

_ أليس هذا طريفا ؟ سوف أموت بعد قليل وبالقرب مني مهرج !

أظنه يقصد مثير للسخرية لكني حاولت أن أكون لطيفا :

_ ماذا تريد ؟

ضحك مرة أخرى رغم المرض والاحتضار :

_ أريدك أن تحكي لي نكتة .

جلست إليه وتبينت من ملامح وجهه أنه فتى طيب ، وحاولت أن أتذكر نكتة ولكني فشلت إذ ليس من عادتي حفظ النكات رغم هذا تذكرت حكاية روتها لي بائعة الهوى وأنا أجدها مضحكة :

_ إسمع يا فتى كانت هناك عجوز تكره الموت ولكنها سمعت بأن أرض الغيلان ليس فيها موت لهذا أمرت ابنها أن يسكنها هناك .

ثم سكت بعض الوقت وبعدها سألني الفتى :

_ ماذا حدث ؟

_ أكلها أحد الغيلان

ابتسم الفتى وقال :

_ أنت لست مهرجا ولكني سعيد بأنك هنا لتساعدني على الرحيل .

جلست بالقرب منه كتفا بكتف وكأنه صديق حميم :

_ عشرة أيام لم أتعاطى فيها حبوب الهلوسة وأعتبر هذا توبة .

قلت له محاولا رفع روحه المعنوية :

_ بل هذا إنجاز عظيم !

_ لكن لا فائدة .

_ ....

وأخرج من جيبه رزمة نقود _ ثروة حقيقية_ وقال :

_ هذا الورق يسمح لي بأن أشتري حبوب الهلوسة التي أريد . هل تعرف ماذا فعلت حتى أحصل عليه ؟

ضحك حتى طار رشاش بصاق من فمه وقال :

_ سرقت سيارة أبي .

_ لا بأس هذا أمر عادي .

_ ليس عاديا لو علمت بأن أمي وأبي دفعا كل ما يملكانه ، وفي الواقع دفعا ثروة لعلاجي من الادمان وعندما تعافيت سمحا لي أن أنام في البيت وفي نفس الليلة سرقت سيارتهما وجئت بها إلى هنا وبعد أيام علمت بأنني ارتكبت خطأ فادحا إذ خنت ثقتهما وشعرت بأنني أستحق الموت ، قررت أن أموت .

وضعت يدي على كتفه وقلت له :

_ يجب أن تسامح نفسك .

هز رأسه وقال :

_ لا أستطيع .

وانكمش على نفسه مثل طفل يرتجف من البرد وقال :

_ السماء بيضاء مثل القطن وأرى بنات في السحاب كما البسكويت في اللبن . يقلن لي : تعال ، وارقص معنا ، تعال إلينا .

_ اذهب إليهن .

_ لكن ملابسي رثة .

_ لا لا بالعكس ملابسك جميلة .

أشار إليهن في الفراغ وقال :

_ اسمع إنهن يقلن بأنك محق ملابسي جميلة .

وفاضت روحه وهو يشير إليهن في الفراغ ، أغمضت عينيه ونظرت إلى حيث كان ينظر إلى السماء . ذلك النور الذي يتخلل العتمة هي أرواح الناس ، لو أنني أرهفت السمع ربما أسمع الفتى يرقص ويغني مع بنات السماء .

وضعت رزمة نقوده في جيبي وحملت حكايته كميراث . قد أفعل من أجله شيئا هكذا قد يسطر القدر كلماته وأنا خطوة من خطواته .

أذان الفجر يزعق من حنجرة رجل أعرفه وصوته يصل إلى السحب الحمراء والخضراء تلك السحب المريضة . دخلت إلى المسجد وجدته يسعل وفي يده اليسرى سيجارة قال لي مبتسما :

_ هل جئت لصلاة الصبح ؟

ابتسمت ساخرا :

_ هل مسجدك هذا للصلاة ؟

_ كل الأماكن إذا طهرت تكون صالحة للصلاة .

وتأمل عبثية الألوان في وجهي وسألني :

_ هل أعرفك ؟

قلت له :

_ أريد أن أشتري منك بعض الأسلحة

_ بعد الصلاة إذا .

قلت له وقد أزحت قميصي متعمدا حتى يرى المسدس :

_ أنا أعلم بأنك لا تصلي وبأن الأذان عندك مجرد هواية !

_ هدئ من روعك يا رجل سوف أبيع لك ما تريده ، في النهاية أنا مجرد رجل أعمال.

وقال وهو يزيح مكتبة كبيرة فيها كثير من الكتب كانت تخفي خزانة ضخمة مثبتة في الجدار :

_ أنا فقط لا أحب التعامل مع الزبائن الغامضين .

ونظر إلي وكأنه يدعوني لأن أقترب ثم قال :

_ أحب الأذان لعل أحدهم يصلي كلما سمعه من هنا ، لعل الناس تتذكر أو تخشى . بالمناسبة ماذا تريد ؟

_ قنابل شديدة الانفجار وسوف أدفع بسخاء .

الساعة ٧ صباحا (الشرير يستمتع)

بدأت الطيور الرمادية تغني أظنها تشتمنا ، وتلعن الأشجار التي تتنفس دخان الآلات .وضعت حقيبة القنابل تحت فراشي لو أنها انفجرت سوف يتحول هذا المبنى ذو الأربعة

طوابق والمباني المجاورة إلى غبار إسمنت . ولعل روحي نفسها سوف تحترق وقد يلاحقها ملاك الموت وهي في الهبوب ويلتقطها خلايا رماد .

كنت مطمئنا رغم أني قتلت رجلا مهما قتلت المؤذن الدجال في مسجده . ولم أشعر بالخوف رغم أنني رأيت كاميرات مراقبة في كل زوايا المسجد .

ومثل نملة تحركت وتسللت لكل مصنع مخدرات أعرفه ووضعت فيه قنبلة وجعلت توقيت انفجارها في الساعة ٧ مساء . ونجحت في فعل ذلك .

أخذت أنظر بقلق إلى عقارب الساعة وكانت تلدغني وعندما حانت لحظة الصفر أرهفت السمع لأسمع صوت الانفجار السعيد ، لكني لم أسمع إلا ضجيج المدينة الرتيب فشعرت بمرارة الفشل .

بعد لحظات رأيت عشرون بندقية صيد وأربعة مسدسات مصوبة نحوي . وترجل رجل سمين وضخم من سيارة bmw سوداء وأنيقة لا أعرف كيف اتسعت له !

كان الرجل هائل الحجم مثل شجرة، لونه أبيض مثل بلغم وفي يده سيف طوله عدة أمتار وفي فمه الكبير مثل مغارة سيجارة كوبية غليظة يقطر من على جوانبها البصاق ، زفر دخان كثير وهو يعض على السيغارة ثم تمتم وهو يرفع سيفه :

_ لطالما كرهت المهرجين .

سقط رأسي بضربة سيف وكأن عنقي مجرد خيط ، أما جسدي فسقط مثل شجرة حقيرة نبذها الضوء وهجرها الماء ولفظتها الأرض . وأخذ الرجل الأبيض لدرجة القرف رأسي بأصابعه الغليظة ورفعه من على الأرض وأحضر له أحد رجاله لوح من خشب وبطريقة ما ثبتني فيه ثم دق لوح الخشب على الحائط وأخذوا جميعا ينظرون إلي ضاحكين .

بعد دقائق تركوني وشأني وفكرت بأنهم قد وجدوا قنابلي الحبيبة وعطلوها . والظلام يتكئ على الجدار شعرت بأن الضوء هجرني لأني فشلت ولكن للقدر رأي أخر لا زلت حيا حتى أحاول مرة أخرى .

جاء رجل تأملني مليا وجد منظري غريبا لكنه ابتسم . الشر مضحك سخيف .

تقدم الرجل نحوي وانتزعني من على الجدار ، وعندما رفعني محاذيا لوجهه ليراني بشكل جيد أنا عرفته إنه أنا.

حكاية العجوز

راشد يسلم :

الثانية عشر ليلاً ، أستقبل اليوم الجديد وأنا أجمع بعض الوريقات النقدية من الدرج ثم أدفنها في جيبي دون أن أهتم لعددها ، أنتزع نفسي من ضغط يوم طويل محاولاً إعادة السكينة لها ، أحمل الرواية التي لم أستطع إكمالها منذ أسبوع ، ثم أغلق الباب الأخضر ذو الضلفتين المتهالكتين وأخرج ، منتعلاً وكما أعتدت منذ سنين طويلة نفس الطريق شبه المعتم الذي يشاركني فيه في هذا الوقت المتأخر بعض السكارى والكلاب الضالة ، وقد أنضم لهم الآن عشّاق شبكات الاتصال ، أولئك الذين يُحمِّلون الأثير من الأكاذيب ما هو فوق طاقته ، إنه تأثير العولمة حتى على هذه الشوارع القذرة المنسية .. هدوء مريع يبدده هدير جهاز التكييف المنبعث من البناء الذي أمامي ، وصفير "جرّة " الفول المنطلق من أسفل نفس البناء والتي يرقد بجوارها رجلٌ جاء من مكان بعيد بسبب الحرب يُحكى فيما يُحكى أنه كان عزيز قوم ..

الحرب .. يفتح وقع الكلمة المرعب نوافذ الذاكرة على مصراعيها لأتذكر تلك الأيام السوداء التي ذهبت فيها إلى الحدود لقتال المتمردين كما كانت تسميهم الحكومة ، لم تكن لي يوماً علاقة وطيدة بالسياسة ولم يكن ضمن أخبث مخططاتي التفكير في قتل إنسان آخر ، لكنني وجدت نفسي هنالك على كل حال أحتضن بندقية أمضيت الكثير من الوقت في تعلم إمساكها بالطريقة الصحيحة ، وأقوم بالتسديد بعشوائية من موقعي على اللاشيء حين يطلب مني ذلك ، لا ريب أنها كانت أسوأ فترات حياتي ، حيث فقدت الكثير من وزني وأدمنت على التدخين بشراهة ، لأننا لم نكن نملك شيئاً نفعله في تلك النهارات المملة التي لا نطلق فيها النار سوى التدخين ، أما في المساء فقد كنا نقوم بتدخين التبغ معكوساً بوضع الطرف المشتعل داخل فمنا حتى لا يرانا أحد من الجهة الأخرى في ظلمة الليل الحالكة فنصبح أهدافاً سلسة لطلقاتهم ، لقد كنا بحاجة لأن ندخن رغم صعوبة الوضع وغرابة الفكرة لأجل أن نبقى مستيقظين على الأقل ، قضيت هنالك عامين لاحظت

فيما أنني صرت شخصاً آخر ، شخصاً قرر أن يفعل أي شيء من أجل أن يبقى حياً ؛ ففي الحروب طويلة الأمد يصغر عندك رويداً رويداً الخوف من الموت ، ويكبر فيك الإحساس بالحياة ، تكون حينها أشبه بظمآن يمنح له الماء قطرة قطرة ، ليغدو كل صباح قطرة جديدة من الحياة ، تؤمن أن عليك فعل كل ما تريد فيه لأنك لست واثقاً من أن يمنح لك صباح آخر سواه ؛ لذا تغيرت كثيرٌ من القناعات بداخلي وتبدلت مقاييس الصواب والخطأ ، الحق والباطل ..

أعود من ذكريات الألف يوم إلا بضعة أسابيع التي قضيتها هنالك بمرارة في الحلق وفوضى متراكمة على حدود الكلام متحسساً غلاف الرواية التي استعصت عليّ وأنا أطالع عنوانها " حكاية الأزقة " ، بدا لي العنوان لوهلة كما لو أنه قد وضع من هذا الزقاق ، فالمنظر من هنا يبدو اختصاراً حقيقياً لفكرة هذه المدينة الراقدة على اطمئنان الخرافة ، فالأصوات التي تعزف في خلفية المشهد كانت تكمل اللوحة القبيحة التي أزالت عنها هذه الأمسية الصيفية شديد الرطوبة مساحيق التجميل

يصيبني اختناق مروّع جراء هذا السيل من الذكريات المتدفقة في مصب وعيي ، فأقرر تغيير مساري المعتاد متجهاً نحو البحر ، لحسن الحظ أن لدي دراجة جيدة تمنحني الفرصة للذهاب إلى أي مكان بسهولة مع هذا الجو الخانق ، أصعد عليها وأنا أسترجع الأسباب التي جعلتها معي الآن ، فقد قمت بشرائها بعد نصيحة من أحد الأطباء لمواجهة ارتفاع السكر وبعض الأمراض من هنا وهنالك والتي أعتبرها ضريبة مقبولة لسنوات عمري ، ولأنني كسول فيما يخص الرياضة وعنيد فيما يخص القهوة والتدخين ، كان اقتراحها هو الحل الأمثل ، ربما تكون هي من المرات النادرة جداً التي أوافق فيها على رأي طبيب ما ثم أنفذه ..

تحت ضوء عمود الإنارة الباهت ، وعلى المقعد الخشبي المصلوب على الأرض ، لا أدري لماذا تذكرت فجأة " سيلفيا بلاث " الشاعرة التي تطاردني خيالاتها منذ عدة ليالي ، تلك الجميلة التي اختارت من بين " أكثر من طريقة لائقة للغرق " أسوأها .. وانتحرت ، بعد أن كتبت قصيدتها الأخيرة بأيام ، بربك أيتها المكتئبة ماذا يمكن أن يكتب الشخص وهو يتجهز لمواجهة الموت ، وبأي حروف سيتسلح حينها وهو ذاهب لاقتحامه ، وهل يجب أن يُضحي المرء بحياته ليُخلّد كلماته ، لو قدر لي أن أكون مكانك يوماً فأنا واثق من أنني سأخنق سلة المهملات بتالف الأوراق وأنا أحاول كتابة قصيدتي الأخيرة ؛ ليس لأنني لا أعرف ما الذي أريد قوله بل لأنني أدرك صعوبة أن تكتب حين تشعر أن الجميع قد توقفوا أخيراً ليُنصتوا لك . .

أمسك بالرواية ودون تحديد أفتح إحدى صفحاتها .. " متى شعرت أني عجوز ؟ " يصدمني السؤال فأطبق دفتي الغلاف بقوة وكأنني أكتم صوته الذي بدا وكأنه موجهٌ إلي ، أحاول تجاهله متابعاً ببصري فوضى الألوان التي تشكلها أنوار السفن مكونة لوحة بارعة الجمال في الأفق لا يشوهها إلا صفيرها المزعج ، في الحقيقة أنا لا أملك تلك الحميمية الغريبة التي يحملها البعض تجاه البحر ولا أرى فيه أي قدسية خاصة ، حيث لم يسبق لي أن جلست عنده لأحكي له عن همومي أو أبث إليه أحزاني ، إن الإنسان منذ سالف العصور وأقدم الحضارات يصنع تمائمه الصغيرة وأساطيره الخاصة ليعيش تحت ظلها ويداري فيها وهنّه ..

لا زال صوت السؤال يتردد داخلي كصدى في فراغ لانهائي عظيم .. " متى شعرت أنك عجوز ؟ " ، ثم يصبح موجهاً لي بمباشرة أكثر من ذي قبل .. " هيا قل الحقيقة ودع القناع يسقط .. اعترف " ، أمسك بالقلم وعلى الصفحات الأخيرة الخالية من الرواية أكتب ..

**

" متى شعرت أني عجوز ؟ "

لا أدري متى حدث هذا بالضبط ، ربما حين فقدت اللهفة تجاه الأشياء ، فأصبحت أسمع فحيحها من حولي في كل مكان ولا أهتم بأن أسأل متى سوف تلدغني ، أو ربما في تلك اللحظة التي نظرت فيها خلفي فوجدت أن لدي ماضي أطول من المستقبل ، وقصصاً أكثر بكثير من عدد الذين سألتقيهم لاحقاً لأرويها لهم ، أظنني أدركت حينها أنني أقترب من النهاية فأصابني بعض الخوف لأن النهايات كلها حزينة ، أنا أؤمن بهذا ؛ لا توجد نهايات سعيدة ؛ تلك تحدث فقط لأن المؤلف قد قرر التوقف عن الكتابة وأعاد ذراعيه للوراء ثم طالع في السقف وأبتسم ، لكنه لو واصل السرد لوجد النهايات الحزينة تتربص به في التفاصيل غير المروية ، كشيء منسي في يد ميت ، إنها تشبه تماماً الحقيقة ،عارية ومليئة بالشك وثملة بالارتياب ، لذا لا أحد هنا يعرف الحقيقة ، نحن نعيش فقط على ظل الخرافة ونختبئ من هجير الأسئلة

لقد عشت حياتي بكامل حماقاتها ، أمي كانت هي الكائن الوحيد المقدس فيها ، لا زلت أذكرها بكل تفاصيلها ، فمنذ أن تكون فيّ الوعي كانت هي بضحكتها العذبة كنبع ماء رقراق لم يعرف التوقف والظمأ ، وبخطواتها الهادئة في ساحة الدار ، كأنها كانت تعرف أنها ستمضي بسرعة لذا لم ترد ترك الكثير من الضجيج خلفها ، وفي اللحظة التي ذهبت لم يعد كل شيء كما كان ، أما البقية فكانت علاقتي معهم تتأرجح أصواتها اقترابا وابتعادا كأجراس الرعاة ، بمن فيهم أبي الذي أرادني نسخة مكررة منه لذلك لم أحبه ،لقد كان يمثل لي صورة الإله بكامل الالتباس حولها ، مما دفعني في تلك المرحلة الطائشة من العمر للتفكير جدياً بالإلحاد ، لكنني لم أفعل لأن فكرة وجود إله لهذا الكون تريحني جداً وتشعرني أنني مشدود شئت أم أبيت لجهة أقوى مني في الأعلى ، تردعني وتدفعني حين أتأرجح بين الإفراط والتفريط ، ومع هذا لم أتمكن من الفصل بين العلاقتين في وعيي حيث ترسخت تلك الصورة حين كان يضحك فيصير وجهه مثل القديسة تريزا أو حين

يعبس فيبدو مثل قاتل مأجور ، كان يبدو كآله صغير عمّدهُ الإله الكبيرالذي يرضى لرضاه ويسخط لسخطه ، ورغم أنه لم يكن قاسيا معي بالمعنى الدرامي أو حتى الأدبي للقسوة إلا أن هنالك حاجزاً حقيقياً كان قد وضع أمامي من قِبلهُ ليمنعني من الوصول إليه كما يريد طفل يبحث عن البطولة في أبيه ، هذا الحاجز ظل لسنوات طويلة يزداد ارتفاعه حتى كدت أنسى ملامحه التي تبقت منها صور قليلة متناثرة في ذاكرتي من أيام الطفولة البعيدة

بعد أن عدت من الحرب كانت هنالك أشياء كثيرة بي قد تغيرت ، أبرزها كان هدوئي وميلي إلى العزلة ، حيث ضرب الصمت بجذوره عميقاً في الكثير من المناطق داخلي ، لكنني مع هذا لم أكن وحيداً طوال حياتي ، ولم أوقف الناس عن المضي في طرقاتي أو أرتضي بأن أكون المدينة البعيدة ، لأنني عرفت الكثير عن الوحدة حين رأيتها تنهش من سعادة البعض ، الكثير الذي جعلني أتعلم أن هذه الحياة بالنسبة لنا أشخاص .. مجرد أشخاص نفقد دهشتنا بها وبتفاصيلها الصغيرة ونشعر فيها بالغربة حين تتعلم حقائبهم الغياب وتنسى آثار أقدامهم الدروب المؤدية إلى قلوبنا ، ليرحلون ثم يتركونك وحيداً مع وجع هذه الذاكرة الأبدي والتي تبدأ بالذوبان كجبل جليدي ، ثم تختفي منها ببطء كل الصور والأماكن التي تحبها ولا يبقى حينها منك إلا وجه مجهول الملامح كرسم طفل على رمال شاطئ بددته الرياح ؛ وهذا ما جعلني دائماً على قناعة أنني أنتمي إلى تلك الأماكن التي تشدني إليها ، حيث كل بقعة لي فيها أحبة فوق أرضها وأسفل ترابها هي وطني .. فالغربة الحقيقية هي أن تحاول رضاعة الحب من ثدي لا تعرفه

وبمرور الوقت وجدت نفسي منحازاً إلى الإيجاز في كل ما أقوم به مبتعداً عن الإسهاب ، مستكيناً إلى الرؤى وساخراً من بروتوكلات المدينة السخيفة ودائرة المجاملات الجاهزة للتداول والتي يُكبل الجميع أنفسهم بقيودها ، وفيما بدا هذا بالنسبة لهم نوعاً من الجلافة في طباعي ، كنت أدرك أنهم يحسدونني على رايات الرفض والعصيان التي رفعتها في وجه أصنامهم ، وكنت أعي أيضاً أنها ليست جلافة كما يدعون ، لأن مجرد ذكرى عابرة كتذكر اسم صديق راحل كانت قادرة على تجميع السحب في سماء عيني وهطول الدموع مدراراً ، لكن كل الذي في الأمر أنه لم يعد في العمر متسعٌ لمثل ذلك الترف

دائماً ما كانت الكتابة والقهوة هما هدنتي الطويلة الأمد مع هذه النفس القلقة التي أحملها حتى لا أصبح سكيراً مدمناً أو شخصاً يسلك فيه العطب طريق اللاعودة ، ومع ذلك لم أحاول يوماً أن أحترف الكتابة لأنني كنت على قناعة أن الكاتب شخص يكتب عن الأشياء التي لن يعيشها ، أما أنا فقد قررت أن أعيش الأشياء التي كان عليّ أن أكتبها ، ومادام لدي ثلاثة أصدقاء وامرأة واحدة يُحبون القليل الذي أكتبه ؛ فإن هذا يعتبر كافياً جداً بالنسبة لرجل قنوع مثلي ، لكنني بالمقابل لم أكن أكتب لكي أورث حكمتي وتجاربي ونجاحاتي وقصص فشلي لهم ، بالنسبة لي هذه مجرد أنانية ، أنا أكتب فقط لكي أتمكن من إعمار الخرائب في داخلي وأتمكن من مواصلة المسير .

ويحدث كثيراً أن تتخلل هذه الهدنة لحظات من عدم الاستقرار حين تقفل الكلمات دوني بابها وتضهب قوافلها في صحراء صمتي ، و لأنني كنت أعلم كم هي قليلة تلك الأوقات التي نصل فيها لحالة من الصفاء الذهني الذي يمكننا من تلمس الحقائق ، قليلة لدرجة أنها قد تضيء في عتمتنا لمرة واحدة ثم تنطفئ ، كنت دائماً ما أنتظرها كما الصياد الذي يكتشف عبر منظار بندقيته اللحظة الدقيقة التي يقفز فيها الأرنب ، قبل أن تتركني للهواجس المقلقة لكي تتخطفني وتغرز فيَّ أنيابها ، ثم تدعني أفكر في أنه ما جدوى كل هذا الضجيج إن كانت ستتلاشى في فوضاه ذرات الأسئلة .

في رأسي الآن قصص وأشخاص وأشياء وأحداث وأسئلة بلا أجوبة وإجابات تبحث عن الأسئلة ومشاعر تتصارع لتحكمني في النهاية إحداها وتسيرني كما تحب .. في وعيي حيوات كثيرة تجعلني كالممسوس بها رافضة الخروج للورق .

الكثير من القلق والقليل من الحب هو ما أحتاجه الآن لتكتمل كيمياء اللحظة ، القليل منه فقط لأنني سأعترف أنني حين وجدته فيما مضى كنت أوهم نفسي بأنني لم أكن متعلقا به بقدر ما كنت معجبا به ، ولم أكن أكرهه بقدر ما كنت أحاول إثبات ذاتي بعيدا

عنه ، كنت أقول أننا تماما كقبطان ومساعده يعيشان لنفس الهدف ، لكنه حين غاب فجأة ، شعرت بقلبي وقد استحال كوة من الفراغ العظيم تسللت إليها الأوجاع من كل مكان ، وكنت كلما انطلقت باحثا عنه في بقعة ولم أجده فيها ملأتها الخيبة ، هكذا كنت في رحلة بحثي عن الحب أهرب من الحزن لألتقيه أمامي ، حتى أصبحت كما ترى ممتلئا بالحزن وأصبح قلبي كمعبد قديم خاوي تتعبد فيه الرياح وتنعق فيه الغربان

وأنا حين أقول الحب فلا أعني بطبيعة الحال ذلك الذي يأتي من أول نظرة ، فهذا إحساس لا أصدقه لأنه يكرس مفهوم أننا مجرد مجموعة من الحمقى تهتم بالمظاهر السطحية فقط ، فالأشياء التي تحدث بسرعة لا تستحق عناء الانتظار ، إنما الحب عندي ذلك الذي يتسرب إليك قطرة .. قطرة ، حتى تأتي " أحبك " تلك القطرة التي يفيض بها أناء القلب .

القليل من الحب والكثير من القلق ، هذه هي الحقيقة التي يمكنني أن أملككم لها الآن ، فبدون قلق لايمكن أن تسأل ودون أن تسأل لا يمكن أن تكتب ودون أن تكتب لا يمكنك في النهاية معرفة السر ؛ ففي البدء كانت الكلمة .

**

بدا الأفق داكناً بعد أن توارت عنه أنوار السفن ، تكتمل الوريقات الخالية من الرواية ، أضع نقطة أخيرة لأشعر بهدوء صوت السؤال المقلق ، وأن حملاً ثقيلاً كان على صدري قد بدأ في التقوض ، ثم أغلق الغلاف وعلى ظهر بياضه المحايد أكتب بخط واضح في منتصفه .. " حكاية العجوز " ، أطالع العنوان جيداً فتجتاحني موجة من السكينة كأنها ندف من الثلج تساقطت في أغواري لتعيد ترتيب ملامحي .. يتبدى لي مجدداً طيف سيلفيا بلاث ، لكم أود إخبارها أنني كتبت حكايتي أخيراً ، قبل أن أتذكر ريكله الذي قال يوماً : " إن وجدتَ بأنك تستطيع العيش دون الحاجة للكتابة، فلا تكتب " .. لأقوم بتمزيق الورقات البيضاء من الرواية .. ثم ألقي بها في البحر .

ذبول الياسمين

سحر عظيم :

عند مدخل السفينة كنت كنبي الله نوح ضاقت بي الأرض، آويت إلى سطح البحر علني أجد فرجاً لهمومي، حين نقلت بصري عليها فغرتُ فاهي دهشةً من حجمها وأشياء أخرى.

أكثر ما لفت انتباهي عند المدخل تلك الطفلة الجميلة التي تشبه إلى حد كبير صغيرتنا ياسمين، كانت تركض مبتعدة من والدتها، ولسوء حظي احتمت بي فما كان مني إلا أن انحنيت لها واحتضنتها طويلاً لا أدري كم من الزمن مكثته في أحضاني، فقد شممت رائحتك فيها، أحسست بدفء حكايتنا عن ياسمين مذ تكونها في رحمي حتى ليلة عرسها، لم يوقظني من هذا الموقف سوى صافرة الباخرة التي تتأهب للإبحار في قلب البحر الأحمر. غادرتني ياسمين مبتعدة مع والدتها وهي تلوح لي بيدها مبتسمة، بادلتها التلويح والتبسم وكنت أسمع دقات قلبي أكثر من وقع أقدامها، تلويحتها تشابه تلويحة ياسمين وهي ذاهبة إلى ترحيل المدرسة الصباحي.. عيناها، جدائلها المترامية على ظهرها، ابتسامتها..

بعد أن وجدت غرفتي ورتبت حاجياتي ووضعت الكتب التي سترافقني في الرحلة على أقرب منضدة من سريري صعدت إلى سطح الباخرة لأنظر إلى وطني من فوق الماء، بالكاد سيكون إحساسا مختلفا تماما من هنا، كان وطني يصغر في عدسة عيني ويكبر في قلبي، تطالعني بورتسودان المستفزة بهدوئها وجمالها، تشبهك تماما هذه المدينة، مهووسون بها كلنا عدا سكانها يتعجبون منا حين يطالعون الدهشة والمتعة من سواد أعيننا ونحتار حول جحودهم تجاهها... معك أدركت ما يعانيه إنسان بورتسودان (حرارة الجو وملوحة الماء)؛ فحين لا تتوفر الأشياء الأساسية للحياة لن نستطيع أن نستمتع بالرفاهية التي تدهش العابرين!! وقتها أردت أن أحلق عالياً، أحسست أنك تختفي مع ملامح هذه المدينة، أردت أن أجدد الهواء في رئتيّ، أطلقت سراح يديّ لأزفرك من أعماقي فما استعطت، باغتني إحساس مريع وكأنني سجينة في قفص الحرية. بدأت أرتعش وتجمدت أطرافي فعدت أدراجي لأرتدي معطفاً عله يمنحني بعض الدفء قد أهدانيه أحد أصدقائي ظنا منه أنه سيقيني من البرد، كان كغيره ممن حولي فكلما مسح أحدهم على رأسي تعاطفاً ازداد حجم

الجرح في قلبي. نافذة غرفتي كانت تطل على البحر.. جميل ونقي ومخيف مثلك، هو عميق جداً لدرجة تصيبنا بالدوار، لا تستطيع أن تتوقع نهايته ولا ما يخبئ بداخله، كل الغرفة تدور بي لا أدري أهو البحر أم ذكراك أم ملمح الطفلة ياسمين أم مشهد المدينة وهي تخرجني من حدودها مبتسمة كأن وجودي بها كان عبء عليها أم... أم.. أنقذني طرق على باب غرفتي من دوامة الأفكار التي كانت ستؤدي بي إلى انهيار ما.. كانت ياسمين مجدداً فهي في الغرفة المجاروة لي، دعتني لمشاركتهم العشاء، عانقتها بإمتنان هذه المرة قد أنقذتني منك، من البحر من وطني، الذي ضاق عليّ بعدك، ولم يحتمل أنات جرحي المندمل، فما كان منه إلا أن رماني في بطن البحر!! كما فعلت الأقدار بيونس في الأزل..

على متن السفينة أرى أطراف السودان المترامية تجتمع، تتحد، تتوحد، هنا في كل زاوية من السفينة، أرى نفراً من الناس تختلف لهجاتهم وملابسهم لكني كنت أحس بتوحد ضحكاتهم، انسجامهم وتقبلهم لبعضهم، تذكرت وقتها نقاشي المستديم معك حول تسامح إنسان وطننا، أخبرك أن قلوبنا مجتمعة بالحب وأنه لا وجود للقبلية والطبقية، كنت تصر على رأيك المضاد لي في كل شيء ومن شدة غبائي ظننت أن التباين الكبير في أفكارنا ما هو إلا استجابة للطبيعة التي تحكم بالتجاذب لكل متضادين،،، من علي سطح السفينة تبدو السماء جميلة وهي تطل على البحر لكأنها أنثى فاتنة ترتدي أجمل فستان سهرة مرصع بالنجوم، تلك النجمة التي تتلألأ تذكرني بالنجيمة التي تحط بثبات على كتفك وبدل أن تمنحني الأمان كانت تبث الرعب في أوصالي، أخاف أن تأخذك مني، أن يسرقك وميضها، أن تتلاشى مني في مأمورية، كما يتلاشى آخر خط لليل مع جيوش الصباح، كنت أخاف صراعي مع الوطن الكبير فيك، أنت وطني الصغير وملاذي، لطالما أرهقني التفكير في حال ياسمين وهي تدفع كل عمرها ضريبة دمك الذي سيهدر على أطراف الوطن، لن تملأها كل عطايا الدولة وهباتها، لن تتجسد أشياؤهم فيك، في ليالي نجاحاتها، في لحظات أساها، في ليلة عرسها.. هه يبدو أني سأجن قريباً: كيف أفكر في ليلة عرسها وليلة عرس والدتها لم تُقَمْ بعد؟! كيف أخشى عليها من وطن كبير سينحني لها دوما لأنها ابنة الشهيد؟ وأنا أرهقت من الانحناء للوطن الصغير من كل محاولاتي في اتخاذ الخطوة المفصلية في ارتباطنا في طرقة من طرف بنانه على باب أبي.. كغيري من الفتيات في عمري أحلم بليلة أتوج فيها أميرة وأزف في موكب بهيج لقصر أميري، تراءت لي مواكب من السفن

التجارية التي تحمل البضائع، ذكرتني بالفرسان الذين كانوا يتراصون كالبنيان في انتظار نظرة رضا مني وأنا لم أكن أرى سوى التي تلك الغشاوة التي تجملك في ناظري، موكب السفن تبعه جيش الصبح الذي سرق عليّ وعلى السماء أنس رؤيته لنفسه على سطح البحر، لون السماء وهو يتّحد مع البحر بكل الاتجاهات يشبه خضرة عينيك، فلم يكن لونه الأزرق المعهود ذاته كنت أقرؤك داخل الماء، وكنت أرقي نفسي من طلاسمك التي ما زالت عالقة بذهني، قضيت نصف الرحلة وأنا معلقة بين السماء وذكريات مريرة جمعتني بك، وصلت إلى منتصف العمر في آخر محطة جمعتنا لتخبرني بالفوارق الاجتماعية بيننا، لتحدثني عن كونك لا تليق بي، وأني أكبر منك في كل شيء! هنا مربط الفرس وعند سطوع الشمس بدت لي الحقيقة، كغيرك من رجال بلادي يحلو لك السمر والتسكع والتمرغ في قصص الحب مع أنثى مثلي، فتنهي القصة بدراما اجتماعية سخيفة أكثر شماعاتها العرف والأهل والمال والعمر، ترى كم من نساء بلادي ذُبحن بهكذا أعذار، لا بد أنهن كثر؛ أحس بالتطابق معهن في زحمة المواصلات، في المكاتب، في المواقع الإلكترونية، يحملن نفس ملامحي، مكسورات الجناح، يدثرن أنوثتهن بعد أن أقمن عليها مأتماً على رفاة أشباهك، لا همَّ لهن سوى العمل، السفر، التمرد، فالرجل عندنا وطن حين نفقد الأمان عنده لا نملك إلا أن نتمرد، الكون يحتفي بالساذجات اللائي قبلن بالجبناء الذين تُزوِّجُهم أمهاتهم ظناً منهن أنهم قليلو الخبرة في الاختيار والاختلاط بنا.. يا للغباء!! أليسوا هم أبناء آدم الذي سُخِّرتْ له الجنة بطولها وعرضها، فما سكنت نفسه إلا في حجر حواء؟! هم الجبناء، لا لهذا السبب، بل لأنهم أسلموا حبيباتهم لأحضان وطن آخر، بكامل إرادتهم ودونما نخوة أو عناء!!

التفكير فيك يجعلني أمنّي نفسي بأن أملك يقيناً كأم موسى وأضع حبي لك على وعاء ما وألقيه في البحر أو تصبح هذه السفينة حوتاً فيلفظني في العراء، لأصبح ثمرة تقابل تفاحة الخطيئة، لكني أغدو دواءً للنساء المنكوبات من أشباهك وأعيدهن بها إلى الجنة فيعشن في هناء.. لم أحس ببطن الحوت ولا التقافه ليّ، لكن سمعت أصواتاً تخرج من بطني.. يبدو أني أتضوّر جوعاً فمذ بدء الرحلة لم أهنأ بوجبة كل هذه المدة، عدت أدراجي إلى الصالة الكبرى.. في الفناء طلبت من النادل وجبة خفيفة فدهشت حين رأيته يطالعني مستفهماً فاغر فاهه حين سألته انفجر ضاحكاً في كل الأرجاء، أخبر رفيقه أني طلبت منه

أخطبوطاً!! لملمت أطرافي وهرولت مسرعة لغرفتي، بالكاد كنت تسكنني في هذه اللحظة أنت كالأخطبوط تماماً، لك أذرع كثيرة وأرواح متعددة، كلما فكرت أني تخلصت منك يطالعني وجهك من جديد، أود أن آكلك لأهضمك فأنت كائن يصعب التخلص منك إن لم تفترس.. ليت البحر ينشق نصفين فأمرّ فيه مسرعة، ينغلق على آخر خطوة مني ويقفل ظلي الذي تلاصقه حد الاختناق بين موجياته، ليتني أستطيع أن أرمي بخيالك من على هذه السفينة، لطالما كان البحر ملجأً للأنبياء، لطالما كان الماء خلاصاً لهم من كل بلاء، فابتلاني بحبك ربي وإليه أهاجر ومنه وبه الرجاء أن يرد لي رشدي وقلبي قبل الفناء في عذاباتي التي أتجرعها كأساً تلو الأخرى، حين أصمت، أصمد، وأعرض عنك، أتماسك أو أتظاهر بالتجلد والبهاء!

أريد أن أصلي، أحسست برغبة قوية في أن أتواصل مع ربي قبل الوصول إلى الكعبة، أردت التطواف الآن حول ذنبي معك، أريد أن أدعو لكل نساء بلادي اللائي تجرعن الخذلان بكؤوس شتى لكنها تتطابق في علقمها ، تحاصرني دموعهن، قصاصاتهن المضمخة بالألم على صفحاتهن في الفضاء، انكساراتهن، انحرافاتهن، فقدانهن شهيتهن للحياة، يحاصرنني اللائي فقدن الأمل في العيش مرة أخرى فانتحرن بأحد طريقين: إما هرولن نحو الموت بخطى مسرعة واعتبرن حضنه أكثر أماناً وملجأً؛ أو قبلن أن يزففن لرجل آخر لا يفقه في الحياة شيئاً غير أوراقه الملونة التي أينما وضعها رجحت كفتها، كلاهما موت، والأول مريح لأنه سريع.. دعوت ربي ودقات قلبي تتسارع ونحيبي على نفسي والأخريات يعلو، رجوت ربي أن يخرجك من قلبي، أقررت بذنبي عسى الإقرار يشفع لي، جاهدت نفسي أن لا أدعو عليك لكني لم أستطع فثمة خذلان لا يُغتفر، لطالما نزف جرحي المندمل في قلبي لم تضمده سوى حقيقة واحدة (سأظل أجمل شيء حدث لك في حياتك، وستظل أسوأ شيء حدث لي في حياتي)،،،

بدأت لي ملامح المملكة العربية السعودية على مقربة وتلاشت ملامحك في دواخلي وذبلت صورة ياسمين وعطرها وملامحها فضمرت ذكرياتها بوجداني، كأني بدعائي الأخير قصصت جدائل شعرها وأبيات شعري التي غزلتها فيك زيفاً!!

بدأت ألملم حاجياتي ونفسي المبعثرة في أرجاء الغرفة،وحسمت أمري مع حقايبي الا أقبل بأن تحبني أقل مما أستحق، فامرأة مثلي سيلاحقها الحب كثيراً، لن أتوقف. وحب لا يستطيع اللحاق بي ليسير معي جنباً لجنب ونتقدم، لا يليق بي!!

الفهرس :

القصص الفائزة

لكتاب جيل جديد بجائزة
الطيب صالح للقصة
القصيرة



كتاب جيل جديد الثالث

شلل اليقظة / مودة نصر الدين
حكايةُ الجدَّات / إسلام أحمد منير
هذيان / خالد عمر
إتسيدى .. الموت وقوفاً / إبراهيم جعفر
وقالت اللوحةُ / حفيظ الحاج
انعتاق روح / أيمن محمد
المؤود / يس المك
فانتازيا المهرج / طلال الطيب
حكايةُ العجوز / راشد يسلم
ذبول الياسمين / سحر عظيم

تصميم الغلاف/ أيمن محمد
a4helso@gmail.com

على الفيس بوك
www.facebook.com/gaded

موقع جيل جديد الالكتروني
wordpress.com.gealgaded2014

جيل جديد
القصص الفائزة
PDF